أواه ياحبيبتى ! إنك لتأتين إلىّ فى
ركاب كلّ شىء جميل . فى السنى ، فى
الشذى ، فى النغم الحنون أحس دبيبك .

البلبل

شبه قصة فى مقطعات

تأليف

حسين عفيف الخامى

الطبعة الأولى

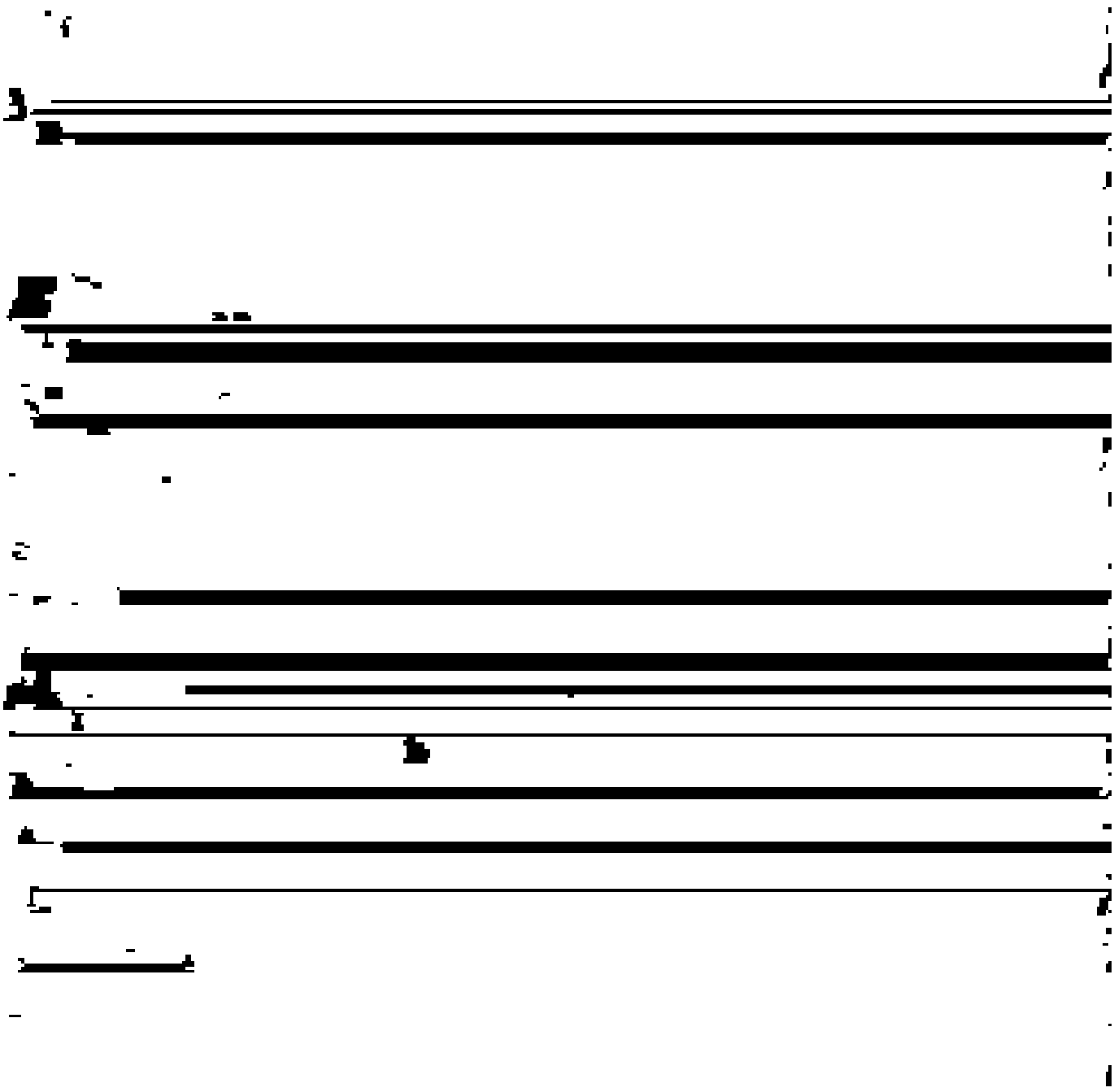

البلبل

شبه قصة ، فى مقطعات

ما هو منها غرامى ،

من نسج الخيال .

أ

أنت يا قلبي يا بلبلي الغريد ، أنت سوائمُ أفي ظلال الأيك حلّقتَ أم على طلل حطّطْت ، أنت سوائمُ أعلى شفاه الورد غنّيتَ أم نحْت وحدك — شهِدَ الله ما تُرْسِلُ الأنغامَ إلا شجية .

حرامٌ وربّي إذَن أن أُخمد أنفاسك ، وإنْ نكُن ودّعْنا الرياضَ معاً ونزحْنا للقفار الموحشة ، وكمثْل رهبان الدير خلّيْنا الحياة وأقمنا عند محرابنا نتعبد ، رغم أنّا لم نزل في شرْخ الصبا ، ومن الأمانيّ فينا براعمٌ لم تَنْضُ عنها أكمامَها ولم تتأرج .

إي يا قلبُ إي والله ! حاشاي أن أُسكِت

مَن إنْ خَلاَ للشدو أبدَع . إنك لَغِرِّيد ، أبداً غرِّيدُ ، عَطَفَ الدهرُ أم الليالى قستْ .

نُحْ يا فؤادى إذَن إذا عزَّ الغناء ، وأْسِرْ فؤاد الزمان بولولة نايك المبحوح ، وقد انبثقتْ فى الفجر الوردىِّ أنفاسُه ، ترْسل الشكوى فتدمى أفئدةَ السُحُب ، وتُسيل بالدمع أجفان الغصون .

ولَئِنْ عاودك الحنينُ إلى أيام الطرب ، فتملَّ ماضيك من تلافيف ذكرياتك ، ومن ظلالها الحزينةِ انفذْ للقبَس .

وعندما تستشرف لألاءُ القديم ، كالحلْم لاح وسْط غُمْض الكرى نورُه ، أو كالصبح نمَّ عنه فى ضمير الليل نجمٌ ثوى ، فمشْ لحظةً فى هواكَ ، وأحْىِ وإياه عهود الليالى المقمرة .

وغنِّ واطربْ ما شئتَ ، وعلى أجنحة النسيم أرسِلْ أسجاعك . وأروِ ظمأً طال عليه العهدُ ،

واشْفِ الفؤاد من حرمان الليالى .

حتى إذا ما صحوتَ وردّت اليقظةُ بصرك ، فانْسَلَّ فى قنوطٍ من بهجة حلمك ، وعُدْ فاسكنْ إلى دياجيرك الموحشة ، بعد أن تسدِل الستار على ماضيك الحبيب .

وهناك وأنت حبيس كهفك ، عُدْ للنواح أسىً على محنتك ، وابكِ الليالى بالقليل الذى تركتْه لك من نور عيونك ، واذرفِ الدمع على خدى الهضيم ، حباتٍ من ذوْب الشجن ، يتألق الوجد فيها كتألق الندى ذوّب الفجرُ فيه حُشاشتَه .

وافتحْ عينيك المخْضلّتين ما بين حين وحين ، وسرّح الطرْف حسيراً فى ظلمات غارك ، وارمقْه شزراً من وراء دموعك الرقراقة ، كزهرة المرج مَن شبّت بالضياء كلِفة ، حين تَرمق الغيْم

من خلال قطارة الطلّ وتتوجس .

وحاولْ وأنت تُسارِق دجاك النظر وتتفطر ، أن تقع عيناً فى دياجيرها على أنيسٍ أو تَسمع فى صمتها المخيِّم نبرة .

حتى إذاً ما يئستَ وأفزعتْك هواجسُك ، فهُبَّ مذعوراً كالحمامة رُوِّعتْ ، وانتفضْ ألماً كالطير الذبيح .

ولَئِن تعبتَ وسوف تتعب ، ونشدتَ البكاء فاستعصت دموعك ، فاهمدْ عندئذ من بَعد ضجةٍ ، وبالوقار لُذْ من بعد جزع .

وكنْ ومضةَ برقٍ لمعتْ واختفت . أو شمعةً خفقتْ وانتهت . وكمثل دمعةٍ وهى تهوى تلألأت ، أو زهرةٍ عند القِطاف تألقَت ، كنْ مَن تألقتَ لِتخبو .

٣

العاشقون على ضفاف الغدران وفى خمائل الربى
ينتظرونك — أيها الشاعر فهلاّ لاعبتَ نايك ،
وأترعتهم بأغانيك المشجية ؟

أفما تنهض ؟ حتى إذا ما التقمت المغرمين شفاه ،
حيّيتَ بالشدو الحنون قبلاتها المشبوبة ، مغرقاً
رنينها السكرانَ فى نُعاسىّ غنائك ؟

أفما تنهض ؟ حتى إذا ما موجَعٌ جافاه الرقادُ
فهجر فِراشه ، ضارباً فى الدجى بلبٍّ شريد ، راغباً
فى البكاء ليفرّج كربه ، هيّجتَ بالنغم الحزين
مكامنَ أشجانه ، وذلّلت منه دموعاً كانت عاصية ؟

قمْ إذَن صفّقْ بجناحيكَ ، ووكركَ زايلْ .
وطرْ وحلّقْ فوق مغانيك القديمة ، وغنّ واطربْ ،
واخلبِ الأسماع كما كنتَ خلبْت .

قمْ تَذَكَّرْ ليالى صباباتك الأولى ، حين راح الغرام يلهمُ قلبك ، وفى الشوق غنّ كما يا طالما غنيت .

قمْ . قمْ أيها الشاعر بالله وغنّ . هيا وتَناولْ نايك . واسحرْ بأصابعك ثقوبه .

قمْ ، ولئن زهدتَ فى الشدو برًّا بحزنك ، فغنّ للأُلَى لم تزل بضياء الأمل قلوبُهم مشرقة .

مَن لِمَن بوجيب الحب نظراتُهم تتألق ؟ أو لِمَن بضناهُ قد غاضت فى المُقَل ؟ مَن لِمَن فى البعد بالدمع تَشاكَوْا ؟ أو لِمَن فى القرب تَهادَوْا بالقُبَل ؟ — سواكَ أنتَ مَن بجِراح الجميع ينبض قلبك ؟

تَنَزَّهَ مِنْ قلبٍ مِن بين القلوب فؤادُك ، عن أن تخرسه وإنْ طَغَتْ أحزانُه ، وهو الذى لِسوَى الترنم ما خَلُص . أوَلمْ تَلمسْ أوتارَه

منذ خُلِق أيدى الآلهة ، وتفعمْ مَجامرَها بالذهب السَّرْمَد ، ثم أمرتْه بأن يكون دائب الشدو ؟

قمْ إذَن أيها الشاعر . قمْ سائلْ جِراحَك ، وتعقَّبْ بأعذب الألحان ما تجيبك به . ولْيكنْ من حزنك ما يرقِّق سجعك ، ويحلّيه بأسىً مُخامِرٍ دفين ، يأسر الأسماعَ جريحُ شجاه ، وتُلين بحَثِّه الأفئدةَ الحَجَر .

٣

حان وقتُ الغناء فهيّا ، أيها الشاعر وانفضْ وسَنَك . هيا ويمِّمْ مع الصباح صَوْبَ المروجِ ، وعصا سِحْرك في يسراكَ ، وفي يمينك نايُك .

واتركِ الحضرَ للغافلينَ ، وفي صحبة الرعاةِ هِمْ في البراري . واهبطْ حيث هبطوا المراعيَ شادياً ، وطأْ كلما وطئوا العشبَ النَّدِي .

وبالنسيم البليلِ اغسلْ كَدَرَ النفسِ ، وبنفْحِ الزهور ضَمِّخْ فؤادك . واقتضب حيث سرْتَ نبتةً مخضلّةً ، أو اقتطفْ وردةً إنْ حَلاَ لك .

وتَناولْها من يد الزهر كأساً ملآى بالندى قد عطّرتْها أنفاسُه الفوّاحة . وتَعاطَها فى محبة الطير خمراً حلالاً من مقْلة الفجر ما سُكِبتْ لا من زجاجة .

حتى إذا ما انتشيتَ وهفَا للشدو قلبك ، فكنْ كطير الغاب صدّاحاً ، وابعثِ الأسجاع تطوى الوهاد وتقفز فوق أعالى القمم . وتُعانقُ الأغصانَ أنّى تسِيرُ ، وتلْثم الأزهار أنّى يممَت .

وأطلقْها مشبوبةً كغناء البلابل فى الأيكِ ، تحمرُّ خجلا منه خدودُ الوردِ ، وعلى وقعه تميس غصونُها الميّادة .

نعاسيةً كهديل الحمام فى القيظِ ، تغفِى على

مناغاته البنفسجاتُ التعِبة ، وتحلم فى نومها الزنابق الوسنانة .

مكتئبةً كنواح القمرىِّ ، يعْقد الغمامَ فى الأفق شجاهُ ، ويهزُّ منه الدموعَ على الجداول رقراقة .

مبحوحةً كهتاف الكروانِ ، يجرح الشفقَ ملهوفُه فى الغروبِ ، ويُسيل منه الدماء على الربَى وردية .

ربَّانيةً كتسبيح اليمام فى الفجرِ ، يُنزل الخشية على قلوب الطغاةِ ، ويوقظ العابد كى يذْكر ربه .

٤

كأنى حين أُمسك نايى ، والأغانى من ثقوبه تترنح ، قد حَملتْ فؤادى قُبَّرة ، وعلى مكانٍ فى رياض الخلد حطَّت .

وإذا بي وعلى فمي المزمارُ شادٍ ، قائمٌ أنشد وسْط حلبة رقصٍ ، قد أديرت في قريةٍ سحرية . الغواني فيها حُورٌ حسانٌ ، ملثّوهنّ السحرُ ، وعلى الأجساد منهن نور .

وكأني وهنّ يَدُرْنَ حولي ، وعلى ضُروب العزف ينقلنَ القَدم ، مقبلاتٍ مدْبراتٍ ، مائساتٍ بالقدود السمهرية ، ما أرى غير أغصانٍ تميدُ ، أو ظباءٍ غريرةٍ تتلفت .

وكأني ورحَى الألحان تدور ، بنَدامى تطوف في حُلَلٍ ذهب ، رحن يَسقين الجمع وقد طَرحوا الكدر ، من مُدامٍ تسكر الروحَ عسلية .

وإذا بي حين أشرب كأسي ، قد مَسّ منّي إصبعي شيطانٌ ، فتراني يَخلب الألبابَ عزفي ، وأجيء القوم بالنغم العجب .

حتى إذا أتممتُ شدوي ، ورأيتُني للأرض

أرجع ، فكأنى فى الكون سابح ، وعلى جناح النور هابط .

وعندما أفتح عينى ، وبعد أن يذهب حلمى ، إذا بى فى شرفتى جالس ، وعلى زهر بستانى أطل .

وحين يحملنى الشملُ وزهرى ، ويرانى إذا خواطرُ أدرك ، تحدثنى من الأزهار زهرة ، وكأنها راحت تقول :

أيها الشاعر حين كنت تحلِّق ، حين غنَّيتَ والطيور حولك ترقص ، نحن أيضاً رقصْنا على نغمات نايك السحرى .

٥

لقد أقبل الربيعُ وانبثقت القلوبُ مع انبثاق البراعم ، عذريةً بعد انقطاع العناق فى قحط الخريف ، تتنزَّى قلقاً إلى الوصلِ ، وعليها من جِدَّة الأشواق نضارة .

فترنّح العصفور على غصنه الميادِ وقد خفّ إلى مَواطن الكَرْمِ ، يحتسي الأقداحَ من خمر العناقيد وينعتها مُغازِلاً بالنجَف .

وغرّد البلبل في قلب الفجر فأفاق على سجعه الجدول الغافي ، وصحا الزهر وقد تَضَرّجَ لونُه .

وتبخترتْ فوق دوحها الأغصانُ وقد لبستْ حُللَ النُّضار وطرّزتْها بجُمانٍ من قطْر الندى ، كمثْل غانيةٍ برّحها اللُّبْثُ في انتظار عشيق ، فازّيّنَت وخرجتْ عند بابها تتسكع .

وبينما اتخذَت النحلُ من شقائق الورود مخابئَ تمتصُّ فيها رحيقها المعسول ، ترَى الجرادَ وقد أخذ يباغت الزنبق بقفزاته الماجنة ، والفرَاشَ وقد يمّم شطْر مَساقط الضوء يحاول أن يغرى الأقاحى برفيف أجنحته الذهبي .

وكأىٍّ من نسْمةٍ تنهدتْ على صدر الرياح

حين غنّى في روحاته الكروان المشوق.
أو دمعة حدّرتها أعين الغصن على هديل القمرية
الشاكي.

كليف الكلّ بالجمال واستراح إلى جوّ
يكابد لوعته ويحرق فوق جمره أشواقه. وانقيادا
للهوى خاتم العذارى، فأنشى نظرت الفيء طائرا
سبتا أو زهرة ولهانة.

وأمّا شباب القوم من فتية وعذارى، فتبعثروا
زمرا على طول المروج وكأنهم الظباء الغريرة
ترعى، ثم طفقوا يجتنون بالقبل تفاح الخدود.
ويقصرون بالضمّ رمان النهود.

وهكذا انتظم الحفل حفل الربيع. وأقبل
العشاق من رانديه يقتصفون جذلين. ويتابعون
الرقص على نغمات ما تفتأ الطبيعة ترقّعها على
أوتار قلبها القيثاري، من رقوق من خفيف

الغصون تَدُفُّ ، وقيانٍ من بلابلها تغرد .

ولقد اطمأن العشاقُ كلٌّ إلى جوار حبيبه أو شمعته المُوقَدة ، وأنشأ يحترق على لهبها فى شغفٍ ولذة ، فما عتّم أن انبعث فى الأفق دخانٌ من أنفاسٍ معطّرة ، بخورُه من قلوبٍ تشبه المَنْدَلَ نكهتُها ، وعليه من الجوى أصباغٌ ، تتراءى فى الفجر فى لونِ الزعفران ، وحين الغروب فى خضاب العقيق ، دمويةً كلما تَطَلَّعَ الشجيُّون إليها آذنتْهم من جِراحها لوعاتُ الوداع بوشْك الرحيل ، فتراهم وقد أزف وقت الفراق سُكارى عن كرهٍ أفاقوا ، وإذا هم يتفرقون وكلٌّ فى جوانحه شفقٌ جريح ، حتى إذا ما أوَوْا إلى مخادعهم جافاهم النومُ فيهرعون إلى شُرُفاتهم من البُرَحاءِ ، حيث دَرَجوا على تمضية الليالى يراعون فى النجم ذكريات النهارِ ، ويطالعون فى البدر قَسَماتِ من عَشقوا .

وأمّا من حالفه منهم الحظُّ وأرخى ذووه له العنان ، فيواصلون الغزل تحت ستر من ظلمة الليل ، وبين بسمات القمر الذى يبدو وكأنه يتفهم .

٦

انتابت فؤادى رعشةٌ مقدسة ، حين حمل إلىّ الفجرُ باكورةَ مقدمك ، ورأيتك تخرجين من عربتك الفاخرة ، فى زمرة العذارى اللاتى زفهنّ إلىَ الوجود هذا الصباح .

ولقد راعنى منك أنك زهرةٌ موفورةُ الحسن . عذراءُ قد نَضَتْ أكمامَها للتو ، فبدت مأخوذةً بسحر الضياءِ ، وأقبلتْ تتهل منه وهى مبهورة .

فبعثتُ إليك من غصنى واجفاً ، وبعد أن انحنيت حتى لثمتُ التراب ، حييتُك بأنشودةٍ عذبةٍ من نغمى المبحوح ، فتقبّلتِها فى خَفَرٍ وأومأتِ

إليّ باسمة ، ثم رددتِ لي التحية بكأس من نَدَاكِ شربتُها راشفاً ما كنتَ فيها من أنفاسك المعطَّرة ، ثم طرت أنا البلبل إلى غصني الميادَ ، أحمل بقلبي عبير الحب ، وأضوّعه في الأسحار أنغاماً مشبوبة .

٧

إذا ما انبثق الفجر ونفضنا عن أعيننا الكرى ، فضوّعي لي يا زهرتي عطرك .

واذكري إذا ما بهتُّ بدوْري بالشدو الحنون ، أني بلبلك . وأن وادينا هذى الرياض ، وملتقانا الميادُ غصنك .

وخذيها إذا ما قدمتُ من فم الصبّ أغانيَ تُسكر كالقبل . وهاتيها من مَراشفك العَطِرة كأساتِ ندًى كالرحيق .

أتُرانا نحن البلابلَ والزهرَ ما لغير الغرام

خُلقنا ، أم تُرى الروضَ وقد راح يجمعنا أغرانا بالهوى ؟

أم أننا نحن الساكنيه ما نَرى من حولنا غير الخيال ، فشبِبْنا وما نحن لسواه نصبو ، ولا بغير الهيام فيه ندين ؟

يا بُورِكَ فينا بلابلَ على تنفُّس الفجر نصحو ، وعلى رذيذ نَداه نفيق . فتعلمتْ قلوبُنا من يومها الخفقَ ، وعرفتْ أعينُنا من ساعتها الدموع .

وإنّا لَتضمنا الوكنةُ إنْ نمنا ، والأيكةُ الميادة إنْ خففْنا للّعب . ونأكل إنْ جعنا من عنب الكروم ، ونشرب إنْ ظمئنا من صفو الغدير .

ويُسكر الطائرَ منا نفْحُ الزهورِ ، ويُطرِب الزهرةَ منها شدْوُنا . وفى كل غصنٍ نغمٌ يُرجَّعُ ، وفى كل مغنًى قُبَلٌ تُختطف .

وكأنّ من ورقةٍ ترتعش كلما غرد صدّاحٌ ،
أو صادحٍ يتأوه كلما رفّتْ ورقة !

وقديماً مسّنا الذي مَسّ قيْساً وليلى . فما نحن ممن عن الحسن يُغضي ، ولا نحن من صبْوتنا نفيق .

٨

أنا مَنْ سقيتُ عينيكِ أكوابَ نعاسي وسهرْت . وزرعتُ بخديكِ الوردَ ، وردَ أشواقي ورجعتُ بشوكِه .

وإنّ مِن خمرة حبي ، ما أريقُ المدام تُسكر لحْظك . وإنّ مِن أسْودِ حزني ، ما أخطّ الظلالَ تكحل جفنك .

كل ما يُذبِل غصني ، يَزيد نضرةَ عُودك .
كل ما يطفيء ضوئي ، يَزيد نورَ شموعك .

يا مَن بالنفْس جدتُ وتبخلين ! لو كانت

دموعى حبات لؤلؤ ، لقطتُ منها الأقراطَ لأذنيك دريّة . أو بسماتى اللجينَ أذيب ، لسبكتُ منه خلاخيلَ لقدميك فضية . ولما إلا رصعتُها ، من رنين ضحكاتى بحلاجل من ذهب .

ولكنّ دموعى شجنٌ مذاب . وبسماتى بوارقُ شوق . إنها لا تصلح حليًّا أخلعه عليك .

إنها بعض ذلك القربان الغير منظور ، الذى ما أفتأ أضحّى به على مذبح حبك ، أيها الإلٰه الناكر للجميل .

إنها بعض تلك الأنفاس التى أصبُّها فى هيكلك ، فتتأرج فى دمائك ، وتهزّ على جسدك البديع زهرَ جماله .

٩

عندما انحسرَ قناعُ الليل عن جبين الصباح ،
هبطتُ درجَ حديقتي المرمريّ ، وبيدي أرغنٌ
وعلى مَفْرِقي إكليلُ زهر .

وحين حيّتني منه طلائعُ العطور ، عاودتني
خفّةٌ في القياد فسبحتُ بجناحيّ كفراشة ،
وغُصْتُ بين أحواض الورد .

ولقد انجابت عني الأشجارُ وأنا أعبر قنطرةً
تشابكتْ فوقها الأفنانُ ، وتدلّتْ منها زهورٌ
كالعناقيد هي بالثريّات أشْبَه .

ومن تحتها يجري جدولٌ رقراقٌ يسير الهوينى ،
ثم ما يلبث أن ينعطف ويغيب وراء غابة .

وبعد أن جزتُ طريقاً منعرجاً يفرشه نثارٌ
من زهر الليمون ، لاحت لي بحيرتي كمرآةٍ لامعة .

وطالعتني منها أشجارُ الصفصاف وهي تدور

مع شطآنها المُعشوشبة ، مدلية بفروعها المبسطة فى الماء كأنها غوانٍ تنشرن غدائرهن .

وفى وسطها لمحتُ العيونَ وقد تفجرتْ من صفاة ، ثم أخذتْ تسيل من مساقطها خيوطاً فى حرير ذى نغم .

ورأيتُ النافورةَ وهى تقذف بالماء يتوهج فى أشعة الشمس ، ثم تتركه يرِذُّ على الموج ، وإذ يهوى تسمع نقراته .

وإذ دنوتُ شاهدتُ أسرابَ الأوز وهو يجوب مسالكها بأعناقه الطويلة البيضاء ، فيبدو كقاربٍ ذى شراع .

وشاهدتُ العصافير وقد ازدحمتْ فوقها ناشرةً أجنحتها ، وما تنى تغمسُ صدورها فى الماء وتنتفض .

على حين سبحتْ أزهارُ اللوتسِ غافيةً

مع اتجاهات الرياح . وهى ما تنفكّ تلتقى فى تجوالها بالزنابق العائمة .

ولقد اتخذتُ مكانى عند خليجٍ اندلع منها فى العشب ، تظللنى أشجارٌ من الحنّاء يذكّرُ شَمُّ نَوْرِها الأرواحَ بعبَق الجنة .

وهناك وفى تلك البقعة التى تحمل طابع ندمك وذكرى قوامك اللَّدْن ، رحتُ أبعث إليك بنجوايَ على أنفاس أرغنى المثقّب .

١٠

إذا ما الليل جنّ وأُطفِئَت الأنوارُ بقصرك ، فتلاشَى الضياءُ إلا من بصيص من نور النجوم ضئيلٍ على شعاعٍ من مصابيح الشوارع خابٍ ، وأوى القومُ إلى مضاجعهم فلم يَبقَ ثمة من رقيبٍ ترمقنا عيونه ، فلسوف ألمح من ركن

نافذتي المقابلة لشرفتك ، ظلالك في ظلامها تتنقل ، فأعلم أنك ما زلت ساهرة .

يا ما أحلاها عندئذ للمناجاة ساعة ! إن كل ما كان بين نجوانا يحول ، لسوف يطويه الظلام وقد دجا ، ويبتلعه السكون فيما يبتلع . وكأن الليل قد صار لنا ، ولحبنا وحدنا قد خلص .

حتى جسدانا الناحلان من البرحاء ، سيختفيان فيما يختفي ، ونصبح محض روحين تجردتا للهوى .

اسمعيها إذن همساتٍ من فؤادي المشتاق ، يسرها النسيم إليك وقد خطر ، مثلما يسر تحية الزهرة للزهرة ، أو قبلة الغصن للغصن .

وتلقفيها قبلاً من نار ونور ، أبعث إليك بها من مكمن ، تضيء في كبد الليل وتستقر على فمك .

وارقبيها وهي تمرق ملتمعةً في الظلام ، وكأنها الشهب من أفئدة النجوم تهاوت ، أو الشررُ من حشاشة النار تطايَر .

ولْنلبثْ هكذا في الظلام الرفيق ساعةً أو بعض ساعة . رسولُنا النسيمُ تحمّله الأشواقَ ، ومصباحُنا القبلُ تضيء علينا من نورٍ لا يُرَى .

حتى إذا ما أمسىَ بك الوقتُ وتبينتُ ظلاً على الشرفة يتحرك وفي قلب الظلام يغيب ، أدركتُ أنك قد داعب عينيك الكرى ، فتسللتِ متسحبةً إلى مخدعك .

وإذ أستسلم للنوم بدورى ، لمْ يَضِرْنا أنْ قد فرّق بيننا الوسَنُ ليجمعنا في الرؤى .

نحن مثْلُ طير الروضِ ، إذا ما افترق ، فلكي يلتقي على غصنٍ جديد .

ولقد ربطنا بأواصر الحب قلبينا ، فقرانا أبداً معاً وإن خالنا العذول شقيتين .

١١

تعالىْ حبيبتى نجلسْ فى هذه الخميلة ، يتخللُ إلينا من بين الغصون شعاعٌ من نور القمر ، رقيقاً شاحباً كوجهينا الحزونين .

هذا منصفى الدوّاقْ ، يعطف رأسكَ على صدرى . فيقفز القلبُ الخفّاقْ ، ليلثم أطراف غدائرك .

قرّبى من ثغرى فمك . ودَعى الصبَّ المشتاقْ ، يقطف القُبَلَ التى يتمنى . إنما اللذةُ للعشاقْ ، فلْنذقْها قبلما تفلت منا .

نحن فى الغدِ والأشواقْ ، أحاديثُ تُخْبِرُ عنـــا .

١٢

هجع القومُ وسهدوا بالكرى ، ولم تزل أيها العاشق ساهراً في شرفتك . أترى تنصت في تأمُّلك وأنت وحيد ، لنداءٍ من المحبوب آت ؟

وترى مثلك هو ساهرٌ ، وكما تنصتُ ينصت ؟ أم نائمٌ حالمٌ ، وعلى جفنه طيفُك الحبيبُ يداعبه ؟

عجبي للعاشقين ما تعرف القناعةُ أشواقهم ! ما كفاهم أنهم نهاراً على الرياض والربى منتشرون ، حتى مضوا وقد سخّروا الكرى ليلاً للقائهم .

ليت أن العذول يفهم ذلك ، فما يعود يُتعب بالترصد نفسه ! أم ترى ظنّ الغبيُّ أنما في وسعه أن يراقب الجفون ، ويُوقع الألطافَ أطيافَ الكرى في حبائله ؟

ليته يوفر عليه الضائعَ من جهده ، ويتلهّى

عن صيدنا بصيد ذبابه ! ليته يقبع فى عقر داره ،
قبل أن يفتك التجوالُ بالبالى سداه !

ويحهُ ، قد كاد أن يَنْفُقَ لمّا أنْ تَعَقَّبنا
تعبا . أمْسِ نَفَقَ حمارٌ قد كان أجهد فى
العدْو نفْسَه . أفَمِن ذاهبٍ بالنبأ الأليم إليه ،
علّهُ أن يرعوى وينقذ عمره ؟

ويْحَه ويْحَه ما أخْيبَ أملَه ! ليس فى
الخائبين من له خيْبتُه . مَن لى بلطمةٍ من يد
الحبيب تُصلح غيّه ! أو بِزَرْقةِ عصفورٍ
تُغْرِقُ الكالحَ وجْهَه !

لو كان فى الروض طماطم ، لَمَا كنتُ إلا
خضّبتُ قفاهُ بواحدة . أو كان فى جيبى بيْض ،
لَلطّختُ أنفَه المعقوفَ ببيضة .

لئنْ حَلّ الثقيلُ فى الروض غدا ،
لَتكوننّ بيننا موقعة . ولَتكوننّ لِلكَمات على

رأسه قرقعة . ولـيكونن شاهدي الحبيبُ . وشاهده ضفدعة .

١٣

بالأمس بتُّ ليلتي ساهراً أراعي النجوم وأذكرك . وكلما هيّج البعدُ تباريحَ الفؤاد ، بكيتُ حتى تقرّح مَدْمَعي .

وإذ تثاءب ثغرُ الفجر عن حديقتك اليانعة ، اتجهتُ إليها واهناً أتسقّط أنباءك .

فعلمتُ من قَلَق الرياح أنك لم تزالي غائبة . وأجابني نوحُ الحمام مردّداً : لمّا تَعُدْ !

ولقد قرأتُ ضمائر الأزهار في عبَراتها المسكوبة . وعرفتُ ما قال الغديرُ من خطواته المترنحة .

فرجعتُ أدراجي قانطاً ، بعد أن بعثتُ إليك مع عطر الزهور بقبلة ، ومع الجدول الرقراق

وتمنيت لو كانت مهجتى نسمةً فأطلقها فى أثرك . أو فؤادى حمامةً فأرسلها ترفرف فوقك .

آه يا حبيبتى ! متى تعودين من رحلتك الطويلة هذه ، ونعود نلتقى على ضفاف البحيرة وفى ظلال الأفنان ؟ نتبادل القبلَ المسمولة بين غمزات الزنابق ، ورغم بسمات زهر اللوتس العائم ؟ ثم نمضى نطعم البط بأيدينا الحب ، ونعدو فى طلب الفراش خفاة ؟

وتبكين كلما نقرتْ إصبعك إوزة . أو أدْمتْ قدمك الجميلة شوكة . فأخفُّ إليك واجفاً أحتضنك ، وأجفف دمعك بأوراق الورد .

١٤

أوّاهُ يا حبيبتى ! حتّامَ بالله تطُول غيْبتك ؟
حتام هذا اليتْم والظلام من بَعدك ؟

متى تعودين ؟ وتردّين على العين نورها ، وعلى القلب المضعضع رمقَه ؟

فى الليل يهتف الكروان ، فتنتاب جسدى رعدةٌ وأظنه يحْمل من لَدُنْكِ رسالة .

وفى الفجر تهبُّ النسمة من الروض ، فتشهق روحى ، وإخالكِ سابحةً فى عطرها .

وكلما جاء الأصيل بموكبه الذهب ، قفَز فؤادى وحسبتُكِ قادمةً فى رِكَابه .

أو طالعتُ وجهك فى القمر المنير ، خِلْتُ أنى منكِ دانٍ ، على ما بيننا من بُعْد .

وإنى لَأعطف الغصنَ الميــاد فأحسبُنى

ضممتك . أو ألثم الوردة الخجولَ فأطفئ قبلتك .

أوّاه يا حبيبتى ! إنك لتأتين إلىّ فى ركاب كل شىء جميل . فى السَّنَى ، فى الشَّذَى ، فى النَّغم الحنونِ أحسُّ دبيبك .

وإنك لقريبةٌ منى حين فى الرُّؤى تأتين ، قُربَ أجفانى منّى . ولكنّ شيئاً منك يبقى نائياً ، ويردُّ الفرحةَ الزُّورَ فى قلبى غُصَّة .

أوّاهُ من أطياف الرؤى تلك ، وما تُموّهه علينا من لُبْثها ! تُلِمُّ فى الكرى بالجفون المشوقة ، كما يمرُّ الأملُ الحلو بالخاطر ، يعيش إذ يسنح فينا وما هو فينا . وإنّا لنُلهَم ذلك ونحن نستعرض موكبه وقد أخذتْ تتتابع أمام عيوننا صُوَرُه ، فنعجب لذلك الكائن الجميل الذى يُرَى كما تُرَى الكائناتُ وما له

من وجود ، وما نفتأ نشعر وهذا الزيف يكتنفه ، كأن نجومه اللامعة تتهاوى على قلوبنا وترسب فيها حسرات خابية ، ما تُعتِّم أن تخطّ ظلالها على وجوهنا كآبة .

أوّاه أيتها الأطياف يا أطيافَ الكرى ! إن الفؤاد ليُلهمه خفيّه من أىّ زُور تتحدر رؤاه التى تموّهين عليه . وتالله لتُحزنُ وساوسه فرحتُه الكاذبة .

حبيبتى ! لمَ بربك تأتينى فى الرؤى لمماً وخلسة ؟ وكالظلال يُفلتُ الأصابعَ لمسُها ، وفى مثل لمح البرق تتقلص ؟ لمَ تلوّحين إلىّ منك بالسراب ، يزيد من ظمئى وما ينقع غُلّتى ؟

قسماً بحبك وما أكرمه علىّ ! قسماً بفؤادٍ بين الجوانح يتحرق ! لقد ظننتُ حبّك مصباحاً يضىء عليه ، أو عينَ ماءٍ تُروِى المأجّجَ

ظمأه ، فكان مصباحاً ولكنه أحرقه ، وكان عيناً ولكنْ لأسُحَّ منها دموعي .

آه ، متى ؟ متى يا مُنَى القلب تأتينَ وتصدِّق العينُ أنها تراكِ ، متى ؟

متى يحتوى قدَّكِ اللَّدْنَ ذراعايَ وتُحِسُّ شفتاي أنفاسَكِ ، متى ؟

متى يلمع الشوق بعيننا ساعةَ التقبيل فيهتك الظلماتِ حوالينا ، متى ؟

متى ، ويطفىء التداني حرقةً بالفؤادِ ، ويلطِّف اللقاءُ من حدَّة لوعتي ؟

وتناديني قائلةً : حبيبي ، وأهمسُ في أذنيك : حبيبتي ؟

تعالىْ ! تعالىْ مهجةَ القلب ! تعالىْ نَعطف الصدرين اللذين أضناهما البعدُ ، ونُطْبق الثغرين

على قُبَلٍ دانية .

تعالَيْ فى مِهَادِ الزهر نرتعْ ونلعبْ ، ونُعِدِ الليالى يا مهجتى سيرتها .

١٥

عندما رأيتُ أوراق الزهور كأجفانى مبلَّلة .

ولمحتُ عليها القطرَ كالجمان يتزجرج .

ويتدلَّى كلما قلَّبه الوجدُ فكأنه الأقراط ، ثم يسقط على العشب كعقدٍ منفرط .

أدركتُ أن ندَى الفجر دمعٌ تسكبه الأزهار ، ورثيتُ لكل نبتةٍ مخضلَّة .

وتمنيتُ لو جمعتُ من حبَّاته كأساً ومن دمعى لُجَّة ، ثم خضتُ إليك مزيجهما سابحا .

حتى إذا ما وصلتُ وثيابى منه تَنْطُف ، مَثَلْتُ أمامك بأشواقى مضمَّخةً بعطر الأزهار .

١٦

بينما أنا جالسٌ فى الضحى وبين يدىّ طاقةٌ من بنفسجٍ حزين ، إذ حَمل إلىّ الرسول بشرى مَقْدمك ، فى رَكْب هذا الأصيل الذهبى .

فنزل علىّ النبأ نزول قطرة الغيث على النبتة الظمانة ، وأحسستُ بقلبى يطير مصفقاً بين جنبىّ ، كحمامةٍ ترفرف فوق عين ماء .

وضاقت بى شرفتى من فرط ما فاض بى الفرح ، فهرولتُ من فورى صوب الحديقة ، وطفقتُ أجوب فى أرجائها ذاهلاً عن نفسى ، كفراشةٍ غِرّةٍ بهرها الضياء فمضت تتمرغ فيه لا تلوى على شىء .

ولقد خُيِّل إلىّ أن الشمس تتثاقل فى خطاها ، وأن أشباح الظهيرة فى رواحها تتباطأ ، فوددتُ لو استطعتُ أن أتحكم فى دورة الفلك ، وأمدّ

ذراعى فأحوّل قرص الشمس . أو لو أن سِنة من النوم أخذتْنى فجأة ، فما أستيقظ إلا على صوت عربتك مقبلة .

وكنت كلما مرت بى لحظة فلتُها أعواما ، أحسستُ فؤادى يغوص بين أضالعى ، وكأنى بروحى طارت فى غَمْر فرْحةٍ مباغتة ، ثم أوهنها وعْثُ الطريق فسقطتْ ترِنُّ على جسدى أشْلاء .

وإذ طال بىَ اللُّبثُ وبَرَّح ، خُيِّل لىِ أنى أسمع دبيبَ دمائى وهى تهرب من عروقى ، وكأنى بوجهى أرى خيالَه كلما انعكس على ماء البحيرة وقد كساه الإعياءُ شحوباً ، وشفتىّ وقد خطّ عليهما الضنى ظلالَه .

وعبثاً حاولتُ أن أقف على قدمىّ من فرط الوهَن ، فألقيتُ بنفسى مضعضعاً فى زُمَرِ

الأعشاب ، وأخذتُ أتقلب فوقها كمن يتقلب على جمر . وما أفتأ بين الحين والحين أن أدفن وجهى فى أعوادها الملتفة ، كَمَنْ أتحاشى النظر إلى ألمى .

غير أنه لم يكد سمْتُ الظلال يتحول ، وبدأت الشمس تمعن فى الميْل نحو الأفق الغربىّ ، حتى أدركتُ أن مجيئك أضحى على الأبواب ، فسَرَت فى جسدى قوًى خفية ووثبتُ أتأهب لاستقبالك ، وأُعِدّ فؤادى لفرحةٍ موشكة .

١٧

عندما أزِف موعد مَقْدمك ، ومضى الفؤاد يثب من الفرح ويرقص ، غادرتُ مَجْثمى بين لفائف العشب ، وهرولتُ أجمع لكِ طاقةً من زهور حديقتى النَّخَب ، أُلقى بها عند قدميك

حالَما تأتين .

ولقد حرصتُ على أن يجرحنى شوك الورد ، لأصبغ من أرجوان دمى شريطاً قانياً أوثقها لك به ، حتى أُشهِدَها على مبلغ تفانيّ فى حبك ، وارتضائى الآلامَ عذبةً فى سبيلك .

وعندما فرغتُ من ربطها وجلستُ أتأملها فى طرب ، ألفيتها طاقةً ذات ألوانٍ وجمالٍ عَجَب . بعضها كثنايا ك أضاء ، وبعضها كوجنتيك تَوَرَّد . وثَمَّ أخرى ، أُشْرِبتْ حمرةً كفمك القرمزىّ .

ويا حُسْنَ ما عليها من ندىً يُسكر القلبَ كلَمَاك ، ولها من عبيرٍ يسرق الروح كأنفاسك .

١٨

يا بُشرَى ! ها هو ذا الأصيل لاح يجرجر أذياله الذهب . وعما قليلٍ تظهر حبيبتى فى رَكْبه .

إن فؤادى ليخفق خفقةً أعرفها . خفقةَ اللقاء الوشيك . وكأنى به يلمح عربتَها بين أمْواه الضوء ، ويسمع حوافر جيادها وهى تَنخبُّ فوق طُرقاته الذهبية .

يا رعاكَ الله يا فؤادى ! إنك لَتشمُّ عطر شَعرها قبل أن يحْمله النسيم من مَواطنه . وترى لحْظَ عينيها ولمّا يَزُفُّه الضياء .

وحتى بستانى أيضاً ، كأنما قد تكهَّن له فؤاده . فهذه أغصانه تتمايد جذلاً لمقْدمها . وعصافيره تزرغد احتفاء بها .

وكأنى بالزهور تفترُّ ثغورها عن بسماتٍ عذبة . وبالغدير يترنح من الطرب موجُه ، فترقص من فوقه زهرات اللُّوتسِ مبتهجة .

إن بستانى ليعرفها حق المعرفة . وإن حصاه ليفرِّقُ وقْعَ قدميها من بين ألْف وقْعٍ ووقْع .

اقفزْ أيها القلب . اقفزْ من بين ضلوعك . ها هى ذى عربتُها تلوح من منعطَف الطريق ، وإن عينىَّ لتبصرانها جيدا .

يا حسْنَها ! انظرْها تقتربُ وهى تبْسم كفرحةٍ مقبلة ، أو كفجرٍ وضيءٍ آخذٍ فى الشروق .

هلمّ أيها القلب . هلمّ وافتحْ أحضانك . وتلقَّها فى لَهَفٍ أىِّ لهف . ثم انشرْ أجنحتك وطرْ بها إلى فردوسٍ بعيد . وذوقا القبلَ معاً زاهرتٍ مقطوفة . والعناقَ أغصاناً معطوفة .

١٩

تعالىْ يا حبيبتى ! تعالىْ ، إننا زائلون !

تعالىْ نختطفِ القبل ! تعالىْ وعجِّلى ! إن شفاهنا فى غدٍ ذاوية .

طُوبَى لهذا الفناء الذى يحبب إلينا الحياة ! ألولا أننا فانون ، كنتُ أقبِّلك هكذا فى

شغف ؟ أكان ثَمَّ شيء يغرينى بالحرص على اغتنام هذه الفرصة ؟ ولولا هذا الحرص ، أكان ينبثق اللّذةِ فى نفسى ميلاد ؟

إن الشيء لَمحوٌ من وجودنا حتى يغرينا بالحرص عليه . ولن يغرينا بنفسه شيء ، لو كان وكنا باقين . لا الدائم من الأشياء محتاج لحرصٍ عليه ، ولا الدائمون منا إن كان ثمة بيننا دائمون ، فى حاجة إلى أن يحرصوا . إن الفرص عندئذ أمامهم لواتية . وما دام أنها مواتية ، فلا بأس من التسويف فى انتهازها . وما دامت تظل كذلك إلى ما لا نهاية ، فلا مانع من أن يكون التسويف إلى ما لا نهاية . وهكذا لن تهبط اللذةُ نفوسَهم المطمئنّة .

تعالىْ ! تعالىْ ! إننا لا نعدو فى أثر شيء إلا أن يفرّ منا . أو يكون على أهبة ذلك على الأقل . ثم نكون من العجز بحيث يكتنفنا الشك

فى اللحاق به . ما محل العدْو والقنيصة ملقاةً أمامنا وفى أرجلها القيد ؟ أوْ لو أنه كان لنا ، إذا هى فرت ، من قوة الأرجل ما نستطيع به العدْو وراءها ليل نهار من دون أن نقف ؟ ثَم حائلٌ بيننا وبين الشيء يجب أن يكون ، لنشعر بوجوده ونهتم به .

إن الجمال لَيغرينا لأنه أبداً يُفْلتنا . مَن ذا الذى استطاع مرةً أن يقتنص شعاعاً من لحاظ العيون ، أو قَبَساً من ضياء شفاهٍ تفترّ ؟ كل ما فى الأمر أننا نعدو وراءه ونحسُّ فى ذلك لذة ، وفى رمْى الشباك لاقتناصه ومحاولة العبث . وكلما كان باهراً فازدادت رشاقةُ سوقه وأمعن أمامنا سرعةً فى العدْو ، كلما زاد ما يتَّسم به فى عيوننا من طابع الزوال ، فما يلبث أن يعمِّق فيها وفى الفؤاد ، تلك الحفرةَ التى تجثم فيها ظلاله ، ويترجَّع فيها صداه . ماذا تظنين ؟ إن

الزوال هو الذى يخلق الوجود .

بل إننا أنفسنا عدمٌ لو لم نكن زائلين . لو كنا باقين لَمَا كنا . نحن أحياءٌ فقط لأننا غداً فانون . لقد وُلدنا فى نفوسنا مذ بدأنا نحرص عليها . وإننا لَنعيش فى ذواتنا رهْنَ هذا الحذر . الحذرِ على الحياة الفانية . فى قلب هذا الفناء نفسه نجدُ مأوانا . ولولاه لَظللنا هائمين فى تيه العدم ، عدمِ الغفلة عن كينونتنا . حتى ولو كانت لنا على الأرض ظلالٌ تتحرك .

طوبَ إذَن لهذا الفناء الذى يهبنا الحياة ، ويخلع على الأشياء القِيَم ! وطوبَ عندئذ لجمالك الفانى ، الذى بزَّ بفنائه أشعارى الخالدة ! أوَ لم يكن هو الموعز إلىّ بها ، فخلقها بذلك من العدم ، ثم ألهبها بسياط فتنته فتوَّجها بذلك بالخلود ؟ ألوْ لم يحبِّبْ إلىّ بفنائه الجمال ، كنتُ أنظم

فيه الأشعار فتخلد ؟ أرأيت إذن أن خلودى مدين لفنائك ؟ أوَما تدبرين هذا ؟ وتعجبين لفانٍ راح يهب البقاء ؟

تعالىْ إذن نتنعمْ بثمرة هذا الفناء المقدس ! تعالىْ نقتطف الحكمة التى تكمن فيه . تلك الحكمة التى تقول : إن الحياة ماخُلقت فانية ، إلا ليكون لقطفها لذته . فاذا أنتم لم تقتطفوها وتتنعموا ، فوتتم عليكم حكمة خلقها كذلك .

أفرأيت إذن أننا ما خُلقنا فانين ، إلا ليمكن للذات أن تنبثق لنا من فنائنا ؟ وأن هذه اللذات ما أريدَ لها أن تنبثق إلا لنستمتع بها ، وإلا لكان وجودها عبثاً أىّ عبث ؟

أأدركت إذن أن الاستمتاع هو لب لباب الحياة ، وإلا لكان الأولى أن نُخلق باقين ، حيث لا ندرك للذّات قيمة ؟ وأن هذه الحياة

إنما خلقتْ بحيث تستطيع أن تغرينا ، فلم تدخر وسعاً فى أن تَـزَيَّـن لنا بأبدع زينة ، ثم أعطتنا ظهرها وولت الأدبار لتزيدنا شغفا بها فنمعن وراءها فى العدْو ، يؤنسنا ويشجعنا ما يتناهى إلينا من شعاع جمالها الوضاء وبهْرج حليها ذى الوهَـج ؟

تعالىْ إذَن ! تعالىْ ولْنبادرْ ، فأن الفناء لَـمِـن دأبه أن لا يهل . أوَليس فناء ؟ يسير حثيثاً إلى الهوّة التى ينزلق فيها ؟

تعالىْ ، واذكرى أننا سندفع ثمن ما ينبغى أن نقطف . سندفعه قطفناه أم لم نقطفه . شئنا أم لم نشأ . لقد وقّعنا به الصك يوم أن وضعنا قدمنا فى الحياة ، وليس هناك إلا أن يحل موعد استحقاقه ، لنؤديَه صاغرين . وإنه لَـثمنٌ باهظ . يستحق فى سبيله أن نحرص على استيفاء السلعة التى

شريناها به . إنه ، إنه حياتنا .

تعالْ ، تعالْ ، إن التوانى قد يفوّت الفرصة . وإذا لم يفوّتها فقد يقلل من شأنها . إن الحياة لَمبنيّة على المسير ، وأمّا العدْو فيه فتضييق لها . إنه السوط الذى يلهب دماءنا الفاترة ، فما تلبث أن تفور وقد استيقظ معها ما كان هامداً منا ، وإذا بحظنا من الحيوية يتضاعف ، وكأنما يعيش فينا بدل الشخص أشخاص . إنْ هو إلا نوعٌ من المهارة فى الضرب على ذات الوتر . الوترِ الذى يقول بأن الحياة مَسير . مسيرٌ فى أثر الفرص . إنه إذَن لَمَسيرٌ تحدوه عبقرية . كالرقص ضربٌ من المشى ولكنه جميل . أوالنغم ضربٌ من الكلام ولكنه حلو . إنه لَمِن الحكمة بمثابة لبابها .

هيا ولْنقطع الشوط عدْوا . ولْنطرْ طيراناً

إن استطعنا الطير . إن جمالك وشبابى ، هذين الفانيين ، قد علمانى كيف أضع إصبعى على السر . قد علمانى قيمة فنائهما الفذ . كما علمانى أن العقل كل العقل فى أن أنقل خطواتى على عزف نغماتهما الفانية . سريعةً مشبوبة . وأن لا أتخلف فأثبتَ جهلى .

هيا هيا ، ولا تترددى . أفانون ونُحرَمَ لذةَ فنائنا ؟ أين فمك القرمزىّ ؟ تلك الكأس التى فيها رحيق ؟ ابْسِمى وأرينى ثناياه اللؤلؤية . ودعينى أطبعُ قبلةً على جمانها المنضّد . ولا تنسىْ أن تصبّى فى فمى رشفةً من سلافك . إننا يا « ليلُ » زائلون . غداً تذبل شفتاى . ولا يلمع فى ثغرك ذلك اللؤلؤ البديع . وإنه ليَخبو لحكمةٍ أىِّ حكمة . لكى يعلمنى أنه محبَّب . وأنه ينبغى أن أتذوقه . وأن لا أبطىء لأنه مجدٌّ فى سبيله .

إنى لتدمعُ عيناى ! حزناً على مصيرنا !
ولكنّ الحزن عذبٌ جميل . فيه عبيرُ القيم
التى تعيش فيه . والتى من أجلها حَزِنّا .

هاتيها يا حبيبتى ! هاتيها قبلاً من فمك !
ما أحلى التعاطى فى ظل الدموع ! إنها لتسجل
بقطراتها الثمينة قيمة ما نأخذ . ابكى يا حبيبتى .
أبكى معى . ما أرخصنا بغير بكاء ! وما أتفه
الحياة لو لم تُخلق حزينة ! وفانية !

٣٠

أما ترين يا حبيبتى ، أن منظرنا يصبح أجملَ
عندما نبكى ؟ أما نغدو عندئذ كالزهرة خضّلها
الندى ؟ أو كالسماء ترسل على الزرع صيّب القطر ؟

غنينى بربك أغنيةً حزينة . كتلك التى يُنشدها
الحمامُ فى الأبراج . واليمامُ على أيكه فى الفجر .

نعم ، غنّيتيها حزينة . كمثل أغنية الملاّح فى اليم . أو الحادى يحوز بقافلته الصحراء . أو الراعى يهبط البرارى مع أبقاره . أو الفلاح يروى من ماء السواقى حقله . أولئك الأشقياءُ الذين ينزل البؤسُ بتربتهم الطيبة ، فيثمرُ فيها النغم الحزين ، يسرّحونه فى ألحانهم الساذجة ، أغانِىَ شاكيةً تتردد على طول البقاع .

هيّا يا حبيبتى غنّى ! وتعقّبى بدمعك السخىّ أغنيتك الباكية . ودعى قطراته الدافئة تلتقى ودموعى على خدينا المتلاصقين ، ثم تمتزجان معاً فى نهر حزين ، تنعقد من أنفاسه كلما لفحه الجوى فتضوعتْ ، غمامةٌ تستقرُّ فى ضمير الأفق مكتئبة ، وتُضْفِى علينا ونحن فى جلستنا الهادئة تلك ، ضباباً أشْبَهَ بذلك الذى يغمر به الفجرُ الأزهار ، أو ظلالاً تشْبه تلك التى

يُفيئُها الأيكُ فى الظهيرة .

هيا وغنِّى ! إن بنفسى لَميْلاً للبكاء . وإنى لَمَا أدرى لمَ ؟ كأن بأعماق الفؤاد شجناً خفيًّا يود أن يسرِّحه . لله تلك الأحزان المجهولة ، التى ما نعرف مأتاها ، والتى ما تفتأ ترسم على محيانا الكآبةَ الفاتنة ، وتُترع بالشَّجَى أغانينا !

تُرَى مِن أى روضٍ منسىٍّ بالفؤاد ، يهبُّ نسيم ذلك الحزن ؟ أتُرَى مِن بستان حبٍّ قديمٍ عفىَ عليه الزمان ، ولكنّ أزهاره المهجورة ما تَنِى تبعث بزفراتها خلسةً مع النسمات ، فيَلفحُ حرُّها خدودنا كلما سَرَت ، ويسكبُ همسُها فى آذاننا حديثَ شوقها المعذَّب ؟

أم تُرَى يهبُّ من أطلال حزنٍ غابر ، أقام ذات يومٍ بالفؤاد فأضناه ، ثم بَلِىَ ولكنّ

أنقاضه ما تنفكّ تعلق بأذيال الرياح ، وتثير الغبار حولنا ؟

أم تُراهُ حنيناً غامضاً إلى مَواطنَ مجهولة ، ضمّتنا مغانيها يوماً من الأيام ، في عوالمَ غير هذا العالم ، وما تَنِي أطيافُها الخفيّة تعاود الفؤادَ وتشوّقه إلى ربوعها ؟

أم هو تعلقٌ بأهداب حيواتٍ سابقة ، عشناها قبل أن نعيش حياتنا تلك ، ثم انطوت فما عدنا نذكر عنها شيئاً ، غير أن صداها ما يبرح يتردد في حنايا الفؤاد على هيئة حنينٍ حزين ؟

أم لعله انجذابٌ خفيٌّ إلى نور وجه الله ، منذ تَركَت أصابعُه يومَ خلقنا طابعَها علينا ، وأوحتْ إلينا بأن نكون دائمي الحنين إلى ذاته سبحانه ، رغم أنّا نعيش رهْن احتجابها عنا ؟

أوّاه يا حبيبتي ! هاتي غنّيني من الشدو

الحزين . وحيّى بنغمك المبحوح أحزاني اليتيمة ، تلك التي تولّى زمانها فنفاها النسيانُ إلى زاويةٍ مهجورةٍ بالفؤاد ، كما يُنفى الصِّبا النضيرُ في تقضُّيات الوجوه الهرمة .

هيا وابشيها إلى الحياة في أدمعٍ جميلة ، تذرفها كلما هاجني الشدو عيناي ، ويَزُفُّ قَطرُها إلى النور بقاياها من جديد ، وقد ألبسها من ذوبه الشفيف ثوباً قشيباً يردُّ عليها صباها .

٢١

ولَدَ الدهرُ وذا مهدُ ابنه الصباح على أكفِّ أمِّه الأيامِ تهدهده . وذى زهورُ الرياض تفتحتْ تستقبل الطفلَ وتصافح خديه بأنفاس العبير . على حين زغردت الطيرُ تزُفُّ مولدَه السعيدَ إلى أبيه الزمن ، وحواليها من الفراشاتِ ذوات اللَّمْح وصيفاتٌ يمسكنَ شموعاً مُوقدة .

فقُمِ افتحْ عينيك المكحولتين بالنعاس وتسلَّلْ من مَغاور أحلامك . واحتفِ بالوافد الجديد على شرفة الليلِ ، وتَقبَّلْ منه الهدايا ورُوداً على وجَنات السحابِ ، وحزَماً من لجينٍ ناولتْها أيدٍ من ذهب .

واقتطفْها أو تَلقَّفْها وروداً من الفردوس البعيد دنَت ، وعيداناً من جنة الخلد اقتُضِبت . واستدرْ برهةً ناحية الرياض ريثما تنشق من عبَق الزهر نفحة ، أو تحتسى من أكؤس الأندا رشفة .

قمْ أيا ناعسَ الليل وارقبْ كتائب الظلام تتجندلُ تحت ألوية الضوءِ ، والدرارى تتهاوى عند أقدام مليكتها الشمسِ وقد عَقدتْ فوق مَفرقها التاجَ لتحكم .

وارْنُ واعجبْ للنحل يمرح فى مهاد الزهور

ويمتص منها الرحيق ذا العبير المختزن . وتمتّع برؤية الأبقار تستمرئ المرعى فتجتث العشب ، على أغانٍ تُنشدها مزاميرُ الرعاةِ ، أو طنين من سواقي الحقل آت .

قمْ وخُذِ الجمالَ الحقَّ عن الطبيعة أمّنا ، أو النغمَ الأصيل عن نايِ راع . ذاك حسنٌ لم يَشُبْ طبعَه دخيلٌ ، وذا مُنشدٌ لم تشوّه فطرتَه حضارة .

هلمّ وانفضْ وخَمَ النعاسِ ، وبصحوة الفجر السنيّ أيقظْ فؤادك . هذى الطبيعة كلّ يومٍ تُجدد نفسها ، فهيا وجدّد شبابك . هلمّ واخلعْ مع المروج قميصك البالى ، واقتضبْ منها مَوَاتَ نباتك . واستبدلْ كما تستبدلُ بورقاتك الصفراء أخرى قد انبثقتْ نضيرة .

هلمّ واشْدُ مع الأطيار ذواتِ النغم الواحد

واللحن السَّرْمَد . يُسمَع مهما يُسمعُ ليس تبلَى جِدَّتَهُ أو تعترى سامعيه سامة . هلمّ وخفِّفْ بالشدو أثقالَ الهمومِ ، وطيِّرْها حين تجثم فوق صدرك فى نغم . ودَعِ النعاس للخَلِيِّينَ ممن لم يهزهم سحرُ الجمالِ فلم يذوقوا فى حبه بُرَحاءه .

٢٢

كأنى بتنهدات العاشقين ودقات قلوبهم الواجفة ، تكاد أن تفشِى سرَّ ما اعتلج بين جوانحهم من هوى ، وترشد الحساد إلى مخابئهم التى لاذوا بها بين تلافيف الأشجار وعلى منحدرات الشواطىء ، لولا أن نبراتها الخافتة ما تلبث أن تضيع فى همَساتٍ مُوحاةٍ من خرير الجداول وحفيف الغصون .

وإنى ليحدثنى قلبى بأن البلابل ما غنت ،

ولا العصافير غرّدت ، إلا لتدارى على تلك الأشواق التى ما تنفكّ تنبعث منهم منغومة . وأن الأشجار ما استطالت أغصانها والتفّت ، إلا لتُفيء عليهم الظلالَ وارفة ، وتَخْصِفَ على لقائهم من أوراقها ما يقيهم شرّ العيون .

وكأن الطبيعةَ تلك اللّعوب ، قد هيأتْ للمحبين من أحضانها أكنافاً يأوون إليها كلما شاقهم الغزل ، ثم أغرقتْهم فى بحرٍ لُجّىٍّ من موسيقاها السحرية ، حتى لا ينمّ عنهم من ذواتهم شيء من تلك الأصوات التى يرسلونها عفواً وفى خفة قياد .

إن موسيقَى الطبيعة وموسيقى الحب ، لَتمتزجان معاً فى كأس واحدة ، فتتألفُ منهما أغنيةٌ متّسقة النغمات شجية الوقع . وإن الوجود ليَشربها كل صباح ، فما يلبث أن تعتريه نشوةٌ مقدسة ، ويعلو وجنتيه تَوَرُّدٌ جميل .

٢٣

اصفحى عنى يا حبيبتى . واغفرى للعين لحظةَ طيشٍ تطلعتْ فيها إلى جمالٍ سواك .

أقسمُ لقد مات سحرُه الزائف على شفتىّ عند أول قبلة ! وأنى عضضتُ بنان الندم على ما اقترفتْ يداى ، وازددتُ منذ تلك اللحظة إيماناً بسحرك وما يفعله بى .

أشهد ليس فى الدنيا جمالٌ كجمالك . ولا مثْله ما يُبلى جدّتَه النظر ، أو يستنفد سحْرَه القلب .

رفقاً بى ! إن تكنْ قد خانتك عيناى ، أو نكث بعهدك الغالى فمى ، فلا والله ما تحوّل يومئذ عن حبك الفؤاد ، ولا نسيك فى لحظةٍ من لحظات غيّه .

قسماً بك لقد كنتُ وشفتاها تحت شفتىّ ، أذْكرك أنت يا [illegible] وما أرى إلا افترار

ثغرك الجميل يلتمع على فمها الخابى فيكسبه جمالَه المستعار .

صفحاً عنى ! ورحمةً بى ! ولْيكن لى من عتاب ضميرى على أن خنتُ بعينىّ عهدك ، ومن تلك الخيبة التى رأيتُ جمالَها يُمْنى بها وكما لا يلبث أن يمنى كلُّ جمالٍ بجوارك ، درساً أىَّ درسٍ لى .

مهلاً حبيبتى ! ماذا أنت فاعلةٌ بى ؟ لا وربك ما يرضيك أن تتخلىْ عن صبك ، وأن تتركيه بعدك فريسةً فى أيدى الليالى القاسية . ترثى ! واذكرى أيام الصفاء الماضية . ووفائى لك مذ تعاهد منا على الهوى القلبان . ودَعى كل ذلك يشفع لى . اذكريها ، ولا يكنْ لزلة يومٍ أن تودى بحب أعوام .

هيا ، واسمحى ليدىّ الآثمتين أن تكفكف

دموعك . وأن تغسلا إثمهما فى قطراتها الصافية . ثم تصفحين عنى ! نعم ، ونعود كما كنا .

أوْ إنْ يكُ الآثم ما تطهره إلا دموعه ، فهذى دموعى أيضاً تشهد على أنها غسلتْ إثمى ، وردتْنى إليك نقيًّا كعهدك بى .

هيا يا حبيبتى . هيا وقوليها كلمةَ صفْح . ولا يكنْ للنقمة إلى قلبك السمْح سبيل .

٢٤

إلى أين يا آخذةَ فؤادى معك ؟ الى أينَ وتتركينَ المضنَى لِمَن ؟ أللزفرات تنهش قلبه ؟ أم للدموع تقرّح أجفانه ؟ أم للذكريات تُريه منكِ ما به تضنُّ وتبخل ؟

أمعذبتى الى أين أزمعتِ الرحيل ولمَ ؟ تريّثى وارفقى بحبيبك . إنى لأتعلق مِن كلفٍ بكِ وبأذيالك أتشبث . خذينى يا تاركتى معك . خذينى ،

ولا تتركيني للّيالي أبكيك فيها وأتوجّع .

رُحماك ! رحماكِ يا ربة القلب الحنون ! يا ذات القدّ البديع والوجه الحسن ! حرامٌ أيامُنا الحلوة تذهب . حرامٌ عليك وربّك .

ويلاه ! تركتْني بلوعتي ومضت . وتوسلاتي ضاعت أدراج الرياح .

ذهبتْ ! ذهبَت الجميلةُ ، ولِمحالي ما رثَت . ليتها قَبلتْ مني ! ليتها صفحتْ عني ! ليتها ، ليتها لصبابتي رقّت !

يا مُؤْذِنَتي بالهجر والقلبُ منه يذوب ، مَن بَعدك إذا الموعدُ حان أَنتظر ؟ مَن في مقصورتي المفروشة بالديباج والورد أستقبل ؟ لِمَنْ أُعِدُّ الثواني وأنا على أحرّ من الجمر في ارتقاب قدومه ؟ حتى إذا ما طرق أذنيَّ صوتُ خطاهُ الموقّعة ، قفز قفزةَ الطائر قلبي ، وخفَّ إليـــه مصفقاً

يلقاه .

مَن بَعدك يُسعدنى بطلعةِ الوجه الصبيحِ ،
وعلى فمه من الافترار ضياءٌ وعلى خده من
الخَفَر وردْ ؟

مَن بَعدك يمنحنى يمناهُ فى تيهِ ألمّها ، وإذا
ما استبدَّ بىَ الوجدُ خررتُ عند قدميه أتمرغ ؟

مَن بَعدك أعطف قدَّه المشوقَ ، وعلى
وجنتيه أهوِى بالقُبل ؟

مَن بَعدك على ركبتىَّ أجلسهُ ، يا من كنتُ
أدللك كطفلة ؟ ورأسَ مَن أُسندُ بيسراىَ ،
وبيمناىَ ساقيه أضُمّ ؟ يا ربةَ الساقين البضّتين ،
وعليهما من أصْفر الشَّعر أطيافُ ذهب !

بشَعر مَن أعبث بأناملى ، وفى أىِّ مَفْرِقٍ
يشْبه الصبحَ وضّاءً زهرىَ أرشُق ؟

جِيدَ مَن بعقود الياسمينِ أطوّقُ ،

ومَن بأساور الفل النضيد أزيّن معصمه ؟

أنفاسُ مَن تلفح خدى ، وفى كيانى تتمشى كاللهب ؟

فَمُ مَن إذا ما الشوقُ جُنَّ أراودهُ ، فأذا ما مالَ أنشأتُ أقطف ورده ؟ يا ربةَ الثغر القرمزىّ ، وإذا ما افترَّ فعن بَرَد ؟

رُضَابَ مَن أرشف ثم أسكر برحيقه ؟ يا مَن لِلماك المليح حلاوةُ الشهد وافترارُ الحَبَب ! ولا عيبَ فيه سوى أنه كالرحيق مسكرٌ ، وإن لم يكن له منه إلا حلالُه .

مَن ؟ مَن سواك يطعمنى الشُّكْلاتَ من ثغره ؟ ويسكرنى بالمعسول من خمره ؟

يا ربةَ الحسن البديع ، يا مَن قد أخجلت الوردَ حمرةُ خدك ، وأثار حسدَ الغصنِ المشوقُ من قدّك ، مَن بَعدك أهوَى أيا هاجرتى ،

وفى هواه أذوب وأتبرّح ؟

مَن بَعدك للطلب العزيز يتمناه عليّ فأجيب ، وإذا ما انبرَى آمراً فى الفؤاد فبالأمر أصْدع ؟

مَن بَعدك يبسم فى وجهى إذا ما اكفهرّ جبينُ الزمانِ ، وعليّ يحنو إذا ما الشقاء ألَمّ ؟

مَن بَعدك يحمل مشْعلَ أملى ، وينير أمامى الطريقَ المدلهمّ ؟

مَن بَعدك أرصد له الثمينَ من وقتى ، وعلى حبه أقف الجبارَ من جهدى ؟

مَن ؟ مَن ؟ لا أحد والله بَعدك . يا حاملةً ذكرى الصِّبا السعيدِ ، وأول من له القلبُ فى الأيام الخوالى خفَق !

ويلاه ! ويا شَدّ ما أقول من بَعدك ويلاه ! قُضِىَ الأمر أيها الصبُّ وجفتك التى كنتَ عليها تشيد أمَلك . ولَكَم توسلتَ وأرخصتَ

الدموع فما لان لها فؤادٌ ، ولا رحمتْ دموعَك .

أتُرى يا حبيبتى يترفق بى طيفُك ، ويزورنى مُلِمًّا فى الكرى ؟ فيؤنسنى بمُقامه العذب برهة ، ويعيد على جفنىَ المشتاق لمحاتٍ من عهودٍ ماضية ؟

تُرى وأضمُّ منكِ إذا ما ضممتُ خيالاً ، وألثم إنْ لثمتُ وهماً باطلا ؟ وأفيق فأذا اليدان خاليتان مما ضمَّتا ، وإذا الفم صفرٌ مما عليه أطبَق ؟

كلا ، فما يداىَ والله تطيقان منك الفراغَ ، ولا فمى على بُعدك يصبر .

هيا أيها الصبُّ ونُحْ وابكِ على محنتك . هيا وتَفطَّرْ يا قليل الحيلة .

ويا نفسُ لم يعدْ فى دنياك من خيرٍ ففارقيها

وعَجِّلى . وأنتِ يا عينُ أغمضى وفى التراب انْسَىْ أحزانك .

ويا تاركتى وفؤادى معك ، صلِّ واطلبى الرحمة من أجل قتيلك . أنا عُودٌ فى غدٍ ذابلٌ ، ومع الرياح وحيث تذهبُ ذاهب .

٢٥

أطلِقْنى يا إلـهى من إسار ذلك الحب الذى حرَّم علىّ بناتِ حواءَ إلا واحدة .

أطلقْنى كما تطْلِق الفراشةَ فى الروضِ ، تلْثمُ كل زهرةٍ ، وتُعانق كل غصن .

أطلقنى كما تطلق الجدولَ يلامس كل حصاةٍ ، ويصافح كل نبتة .

أطلقنى كما تطلق النسيم السارى ، يهيم بلا مستقرٍّ ، ويهبط كلَّ منتجَع .

أطلقنى كما تطلق الظباء فى المرعى ، تأكلُ ما تشاءُ وتدعُ ما تشاء .

أطلقنى كما تطلق النغمَ الحبيسَ ، ينسكب فى كل مِسْمعٍ ، ويَلمس كل جرح .

إلـهى وهبْنى من الجمال رياضاً لا تُحَدُّ ، تُنْبت الزهرَ ما يُعَدّ .

إلـهى واجعلْ لى من ظلالها مَفِيئاً آوِى إليه ، ومن قيظها جمراً أتقلّى عليه .

إلـهى وبَعْثِرْ فى مِهادها الوردَ ، أتمرغ بين شقائقه وأتقلب على شوكه .

إلـهى ودَعْ كُحْلَ عينىّ من مرآى الغيد كلّهنّ ، ومَسِيلَ دموعى من تدلّهى فى عشقهنّ .

إلـهى واجعلْ لشَفَتىّ تذكاراً على كل فمٍ ، ولعينىّ دمعةً على كل خد .

ما أنا إلا شاعرٌ خُلقتُ لأمرح فى رياض الحسن ، كما تمرح النحلة فى قلب فجرك .

إلـهى وحبى لليلىَ يعوق تصفيق جناحىّ ، فنه سرّرْنى ، وعنه ربِّ اصرفْنى ، وتيِّمنى ببناتِ حواءَ جميعا .

إلـهى وأرسلْ بأعذب الألحان لسانى فى التشبيب بهنّ ، كما ترسل البلبلَ يهيم فى كل وادٍ ، ويشبِّب بكل زهرة .

٣٦

ربِّ هَبْ لى من غيدك الحسانِ مجموعةً مختارة ، كطاقة الزهر حَوَتْ منه أفنانين .

فيهنّ سمراواتٌ كظلال الأهداب على الجفنِ ، وشُقْرٌ كأنهنّ الأصيلُ الذهبىُّ يتوهج . وبين بينَ كحبة الحنطة فى موسم الحصاد .

وبينهن من سُود العيون الفاتكاتُ اللحظ ،
ومن زرقهنّ الناعساتُ الطرْف . ومن ذواتِ
الأعين الخضر الحالمات .

والمضرّجاتُ الخدودِ تَضَرُّجَ الوردِ ،
والشاحباتُ الوجوه كأخيهنّ القمر .

والضامراتُ خصورُهنّ كمثْل الظباءِ ، وذواتُ
القدّ الخصيب كمثْل غصن البان .

إلـهى واتركنى أتقلبُ بينهن كما تتقلب النحلة
بين زهورك ، ومن ثغورهن ذوات الافترار
أرشف الرحيق مختلفاً ألوانُه . ثم أُرسله وقد
أنضجه الفؤاد ، شهداً أقدمه للناس هديةً فى
أشعارى .

٢٧

أيها الشاعر لأنت أجلُّ من أن يكتوي بالعشق قلبك . كل ما حولك من جمال ، إنما خلق لتنساه وإن شوّق عينك . يسترعي انتباهك العبقريّ للحظة ، ريثما تسحره ألفاظاً تنضّد منها قصائدك ، وإذا به يصبح عندك . وإذا بك تسلوه لتذكر غيره . إنْ هو إلا لِعصا سحرك موهوبة ، مهراقُ الدماء على مذبح شعرك . فكيف بالله هواه يكبّلك ، أو سحرُ جفنيه يأسر لبّك ؟

هيا إذن صفقْ بجناحيك وطرْ وجوّب في رياضه . واقتطفْ منه ما أنت مشتهٍ ، وبقلبك فالمسْه يصبحْ لكَ ويكُنْ من كلماتك . وإنه إذن لحبيكَ الخافقُ القلبِ السبّاقُ إلى أن يدنوَ منك ويغدوَ من دررك وفي عقود شعرك النضيدة ينتظم .

٢٨

إن سلّتي تفيض بالزهر العجب ! وإني لأملؤها كلّ صباح ، من حديقةٍ هناك تنبت بريّة ، في مواطن الفؤاد الغير منظورة ، ثم أمضي بها إلى شواطىء الأنهار ، حيث العذارى فرحاتٌ بجمال الصبا ، فأبيعهنّ زهوري لقاءَ نظراتٍ من عيونهنّ ساحرة ، أو بسماتٍ من ثغورهنّ مضيئة . إليكِ يا غادتي من سلّتي زهرة ، ودَعيني أرشقها في مَفْرِقك . ثم أقف برهةً أتأملك على تغريد البلابلِ وغناء العصافير .

إنها وردةٌ ويا لها من وردة ! حمراءُ تحمل في مباسمها أحاديثَ شوقٍ طاغ .

وتلك أيضاً ياسمينةٌ بريئة ، في وسعي أن أنتظم منها إكليلاً أعقده على جبينك .

وهـــذا فلٌّ يمكنني أن أنضّد من حبّاته

اللؤلؤية ، عقداً أطوّق به عنقك .

وثَمَّ أيضاً نرجسٌ ترمز العذاب صفرتُه ، إن شئتِ صغتُ لمعصمك سواراً من زهرِه الذهب . إن سلّتي عامرة . إنها سلةٌ عَجَب .

يا بُشرى ! ها هي ذي ثنایاك تفترُّ عن بسمةٍ مضيئة . يا لهذا الصبح المبين ! يا للفَلَق !

آهٍ من بسمتك هذي ، التي تدير الرءوس ! كأني بقلبي يغمره نورُها اللُّجّي ، فما تبدو منه إلا فقاعةٌ طافية . حُلْماً لقد أصْبحَ قلبي .

وها أنت ذي تنظرين إلى عينيّ وتتساءلين ، وكأنك تتوسمين بهما جنونا . ولعلك أيضاً تتساءلين من أي خمرٍ شيطانيٍّ شَربتا ؟ إذَن فاعلمي أنهما شربتا من حسنك . وإنّ به لَخمراً يَرُدُّ العيونَ مجنونة .

انظرى إليهما ، ترىْ سحْرك طافياً فوقهما ، وقد استدرج إليه من الأعماق أشواقى . انظرى كم تتألقان ، واحكمى . وسلى نفسك عن سرّ ذلك الشيء الذى يبعث الأشواق على العين مضيئة . إن ما بى إذَن جنونٌ ولكنْ لا كالجنون . إنْ هو إلا شوقٌ عربيدٌ بالعين شَبٌّ . إنه جنونٌ ولكنْ عجَب .

وافرحتا ! لقد لمحتُ شعاعاً من عينىّ يخترق مقلتيك ويغوص . ولابد أنه قد استقرّ منك فى القلب . قسَماً بعينيك ستطربين له أىّ طرب . إنى لَعلىَ هذا أراهن . ذلك أنه شعاعٌ من عينين خَلصَتَا للشوق . به من قوة النداء ما يدع القلوب تجيب . إنه أيضا لَشعاعٌ عجَب .

!

ما أحسب أنْ قد عادت بك إلى رفض هديتى حاجة . قُضِىَ الأمر وأُخذْتِ بعواقب

سحرك . ووقفنا معاً في فخٍّ نصبْتِه . سلِيني
إذَن ما تشائين . مُرِي أقدِّمْ لك سلّتي كلها .

وما من ضيْرٍ عليّ إنْ أفعل ، ما دام في
وسعي أن أملأها من جديد . إن زهر بستاني
لَيَجِدُّ موفور . وما هو مما بالقطف ينفد . هو
مثْل أشواقي يتجدد . كل يومٍ براعمُ منه تتفتح ،
وأخرى للوجود تنبثق . وإن أحواضه لَشاسعة ،
تلتقي والأفقَ إن كان ثَمَّةَ ملتقىَ . وإنّ أنشطَ
المناجل حصداً لَتكلُّ دون أن تأتي عليه . ونجومَ
السماء لَتتضاءل أمام عديده . ذلك أنه ينمو
ببستان غُرِسَ على قلب . قلبِ شاعرٍ لا حدودَ
لمملكته . إنه بستانٌ عَجَب .

تانِ هما عيناك بدأتا تحزنان . الوداع إذَن .
ما كان يجب أن تحزني . ماذا كنتِ تظنين بي ؟
إنْ أنا إلا شاعرٌ يبيع العذارى زهرَ الحب .

إنني أمرى عجَب .

نعم . وما أكثر ما قد بعتهنّ منه ! وما أكثر ما قبضتُ من الثمن ! لقد كنتُ أقدم لهنّ الزهرة المبكّرة فى الصباح ، فينقدْنى ثمنها قبلةً رقيقة ، أو ضمّةً هيّنة ، يسمحن لى بها . وما مِن منهنّ أخذتْ من زهرى ، إلا عادت تترقبنى كل يوم ، وتعرض علىّ ثمناً أبهظ . أفقَد سمعتِ إذَن ؟ إننى لِحديثٍ عجَب .

الوداع يا غادتى . إننى ذاهبٌ أعرض زهرى . ثمّةَ عذارى كثيراتٌ ينتظرْنه . واعجبًا لك ! ها أنت ذى تتشبثين بسلّتى ، وبرغم ما عرفتِ من أمرها . أولم أقُلْ لك إن أزهارها مغرية ؟ وإن إغراءها لا يُقاوَم ؟ وإنها أزهارٌ عجَب ؟

والآن ، انتقى منها ما تشائين . والأسفا ، يلوح

لي أن النرجس الأصفر من نصيبك . النرجسَ رمزَ القلق والعـذاب . لا بأس فأن الجمال لـفى هذا القلق . والشِّعرَ لـفى صفرته الرقيقـة تلك . تلك الصفرة التى تخفِى فى شحوبها سهادَ ليالٍ وحديثَ ضنًى طويل . لـنِعْم الزهرةُ هو زهرةُ المعـذَّبين ! أولئك الذين نزل بقلوبهم الألم فأطلقَ ألسنتهم من عقالها تجْأر بالشكوى ، وتبثُّ البَثَّ فى نغمٍ حنون . أمَا ترينَ إذَن إلى أنه زهرة العشاق ؟ والشعراءِ أولئـك السحَرة ؟ الغارقين فى لُجج الألم ؟ والناطقين بالعـذبةِ أنغامِـه ؟ وأنه زهرةٌ عجَـب ؟

إلىّ أذَن بمعصمك الجميـل ، ودعينى أطوقه بسوارٍ من زهرِه الذهب . ثم أتركك وأمضى ، بسلتى العجَـب . بعد أن أقتضى الثمن قبلةً من فمك معسولة ، وضمَّةً من صدرك ملهوفة .

إلىّ يا غادتى . بمعصمك العجَـب . ذا النرجسُ

الذهب . يطوّق ناعمَه . فهاتِ لى فمك . فمك العجَب .

٢٩

إلـهى لا تأخذْنى بمرحى إن شدوت ، وهبْنى من بركتك ما أستعين به على تجميل أنغامى .

إلـهى واغفرْ لى أنْ جَوّبْتُ آفاق أتشبّبُ بالحسْن ، وأقطف من رياضه الثمر الحرام .

ما أنا إلا بلبلٌ يغرّد فى قلب فردوسك الأرضى . وهذه أغانىّ تَلْمس بأجنحتها وردَه التوّاق ، فيرتجفُ طرباً تحت ملمسها ، ويحمرُّ أمام غزَلها خدُّه .

ولقد شربتُ الخمر خمرةَ حبه ، فأفعمتْ قلبى بمرحٍ مقدس ، وأطلقتْه فى الأسحار بالأغانى العجَب .

وإنى لَيستخفُّنى الطربُ فأعلو حتى تلامِس شفتاى التفاحَ فى الغصن ، ثم أهبط فأضم زهر المرج الدانى إلى تربته . وأنا فيما أنا أعبث ، ما أنفكُّ أرسل الأسجاع تُصْبِى العابد المتبتِّل.

إلـهى ، لمَ خلقتَ الزهر يتأرج فى الروضِ ، ويُسكر بعبيره النفوس المشُوقة ؟

لمَ خلقتَ الفواكه تميد بأغصانها وتغرى بلثمها كلَّ ذى ثغرٍ غَزِل .

لمَ خلقتَ الغدير يترقرق ماؤه ، وطرَّزْتَ بالنضار شُطْآنه المتعرجة ، ثم أفأتَ عليه الظلالَ ترطِّب مَنْهَله وتُغوِى به الصدورَ الحَرَّى ؟

إلـهى ، لمَ خلقتَ كل هذى الفِتَن ، وخلقتَنى أنا البلبل وفى صدرى نغمٌ حبيس ، ليس بينه وبين أن ينطلق ، سوى أن يدنوَ منها ثم يصوغ من

نورها أجنحةً يصفق بها ويطير ؟

إلـهى ، أنزل الرحمة والعفو على بلبلك ؛ ولا تنظر بعين الريب إلى نغمى وإن بعث الفتن . أشهد ما أغانىَ إلا أنفاسٌ مُرِحاةٌ من ثقوب نايك السحرى . فاتركنى يا إلـهى أطلقها تسبح بك ، وتضوع فى الكون شذاك .

٣٠

ادخُلى بستانى يا غادتى الجديدة . ادخُليه على الرحب والسعة . وحُلِّى عليه ضيفةً جميلة ، مثلَها العينُ ما رأت . مُكرَمةَ الوفادة كالطير والنحل والفَرَاش . تقتحم عليه الأبواب من دون استئذان ، فيتلقاها فى حفاوةٍ وفرحة قلب ، ويفتح لها فؤاده تمرح فيه أنَّى تشاء وحيث تشاء ، وتملأ أفنانه

طرباً وبهجة .

انظرى ! إنه ما يخلو منها أبدا . وإنه منها لَفِى هرجٍ دائم . يا حبذا الهرجُ هذا والمرج ! إنه لَيخلق لِى منه مملكةً صغيرة ، وجلالتى ولا فخر أكون مَلِكها . وهذه الطير وزرائى ، وحريمى الزهورُ ، والضفادعُ الخَدم .

تضحكين ؟ وتقولين خيالٌ ظريف ؟ شكراً ، ضحكتك أظرف . بودى أن أعرف من أى ذهبٍ سحرىٍّ صِيغَ ذلك الجرَس الذى فى فمك ؟ وبأية يدٍ رشيقة تدقينه عندما تضحكين ؟

هكذا أستدرجك للضحك مرةً أخرى . فى الحق أن جَرَسك هذا راقنى كثيرا . عفواً ؟ أمَا أكفُّ عن الهذر ؟ فى وسعى إذا كفَّ جمالك عن أن يبعث الطرب فى قلبى .

ماذا أفعل ؟ أروِى بستانى . أنْ أتعهد

زهوري لَهُو أحَبّ الأشياء إليّ . انظري ! إنها عطشة . تكاد أن تذبل من القيظ . أمَا ترينها تلهث ؟ مسكينة هي ! ما أجملها حين تشرئبّ بأعناقها لتلتقط رشاش الماء ! أمَا ترين إلى هذا الماء ، كيف يتصاعد من النافورة لجينيًا ، ثم ينثني عند مستقط الضوء ويهوي في ألوان قزحيّة ؟ لِمثل هذا ترينني أعشق مهجتي هذي . مهجة تهدّد بستاني .

ثم أمَا ترين إلى الجدول الرقراق ، كيف يَجري الماء فيه مرتعشاً ، ارتعاش الفؤاد الواجف في حضرة الحبيب ؟ وكيف تلتوي سواسية موجاته مع كل منحنٍ ، وكأنها أنغام تتلاحق ، بَعثتْ بها آلات تعزف متّسقة ؟

وهذه الحشائش القائمة على ضفتيه ، أمَا ترين كيف أنها تنثني في شوقٍ مع مَسيله ، وكأنها

تتعلق بأهداب التيار ؟

إن بستانى جميلٌ يا غادتى . خصوصاً عندما تكون أزهاره عطشة . إنها لتلتمع عندئذ بضياء الرغبة فتبدو أكثر جمالا . أما تشهدين عليها هذا الرفيف ، كلما مرقتْ بجانبها قطرةُ ماء ؟ واحرامُ لها ! كل قطرةٍ تمرُّ عليها ، تكاد أن تنتزع منها الروح من فرط الشغف ، فتبدو لكثرة ما طفا عليها من روحها وكأنها بضياء مهجتها تتألق .

والآن ، انظرى عينينا . أما يلتمع فيهما ضياءٌ يشبه هذا ؟ أما تريْننا أيضاً زهرتين عطشتين ؟

ماذا ؟ تقولين إنك حقًّا ظمْأى ؟ نَهَكَكِ القيظُ على طول الطريق ؟ مرْحَى مرحَى ! ها هى ذى الجميلة تتعامى عن قصدى . ليكُنْ أن تهنأ بلفِّها إلى حين . ولألفنَّ وحياةِ عينيها لفَّها .

حسناً يا غادتي ، ألك في جرعة ماء ؟ من هذا الغدير الصافي ؟ في استطاعتي أن أملأ منه راحتي وأسقيك . تماماً كما أسقي عصفوري الصغير . آهٍ منك يا عصفورتي الصغيرة أنت ! خذي . ها هو ذا الماء . هنيئاً لك ما شربْتِ .

ماذا تقولين ؟ يبدو لك أنني بالضبط كما سمعْتِ ؟ ها ها ها ! هو ذلك يا حسنائي . إن من حدّثوك عني لم يكذبوك الخبر . وعندما تغادرين بستاني هذا ، وبعد مكثٍ طويل إن شاء الله ، ثم عَوْدٍ في الغد أحمد ، لن يَبقى لديك شك في هذا .

والآن ، هل ذهب ظمأك ؟ كلاّ ؟ لعلك حَرّي من ضغط ملابسك ؟ أمَا ترين أنه من الأوفق أن تخلعي قبعتك ؟ وتندّي جبينك المحموم بحفنة ماء ؟ أأخلعها لك ؟ إنها لمَهمة إلى نفسي

حبيبة . قرّبي جبينك مني . لا يشتغلْ بالك من أجلها . سأرشقها في عريش العنب ، فتخالها العصافيرُ فزّاعةً فتهرب . ما الفزاعة ؟ عصاةٌ يُلبسها البستانيُّ ملابسَ الآدميين ، حتى إذا ما رأتها الطيرُ المغيرة على الثمر ، حسبتْها إنساناً وولّت الأدبار .

إنما قولي لي بربك . من كان يتوقع أنك تُريني الفلق في صميم الظهيرة ؟ وبأي ناموس من نواميس الكون أمكن ذلك ؟ لا تفهمين ؟ وتطلبين مني أن أوضّح ؟ حسناً عندما رفعتُ قبعتك ، ألم يبدُ لي جبينُك الوضّاح ، وقد انبثق من تحت شعرك الفاحم ، مثلاً بمثلٍ كما يتسلل الصبح من قلب الظلام ؟ اضحكي ما حلا لك . هيا ، دقّي الجرس . دقي قلبي .

والآن ، مرةً أخرى ، هل ارتوى ظمأك ؟

كلا أيضا ؟ إذن لعله حذاؤك يضايقك ؟ أأقوم لك بمهمة خلعه ؟ وتطفئين قدميك التعبتين فى الماء ؟ لا عليكِ . إنها مهمة محبّبة إلى نفسى كذلك . جميع المهام التى من هذا النوع إلى نفسى حبيبة . إنها عندى كتعهد بستانى سواء بسواء . وإذا ما أضفت إليها أشعارى ، كانت هى كلّ ما أحب .

لا تعجبى . إن من الناس الكليفين بالجاه والقصور والضأن . ولكننى أصارحك القول بأن الجاه يرهق كتفىّ ، والضأن يثقل على معدتى ، والقصور تخنقنى . إننى طائر ما يعنينى إلا أن أمرح فى بساتين الخدود ، وأسكر من بنت عنب الثغور .

إننى فى نظرهم قنوع ، ولكننى فى الحق أشد منهم طمعا . ذلك أننى تخيرتُ المطلبَ الثمين وتخذتُه لى هدفا . وإن طمعى هذا ليبدو

فاتناً كلما وقعتْ عيناى من الجمال على قنيصة .
عندئذ لا تكفينى النظرة العابرة ، ولا القبلة
الخاطفة ، وما أقنع حتى ألقىَ بدلوى فى الخِضَمّ ،
وأستخرج الكنوز من أغوار اللجج ، ثم أنضّدها
بأصابع فؤادى الماهرة ، وأخرجها للناس شِعراً
عبقَرِيا .

والآن ، أعطينى قدميك . نعم ، هكذا . شكراً
على هذه المنّة . ها هما ذان حذاءاك فى يدِى .
أما ترين أنهما يَصلحان قاربين صغيرين ؟ انتظرى
وأنا أريك . وثقى أنهما سيسْبحان فى الجدول
برشاقة . ماذا ؟ أترك الحذاءين ؟ كلاّ . اتركيهما
أنت . قلتُ لك لا تتشبثى بهما هكذا . نعم ، لا شىء
يفوّت علىّ مشاهدة ذلك المنظر الجميل . منظرِهما
عائمين . ولكنْ اطمئنى ، لقد عدلْتُ عن التجربة .
ذلك أنى فطنتُ إلى أنهما خاليان من المجاذيف .
ولولا ذلك لَمَا أمكن لأية قوةٍ أن تنْجيهما من

شقّ غمار العباب . وأحسب أن فى حديقتى ضفادعَ تجيد الجذْف ، وتستطيع أن تصلَ بهما إلى البرّ فى أمان . واأسفاه ! لو كانت لهما مجاذيف !

على أى الأحوال لقد انفرجت الأزمة ، وخرجتِ منها غانمةً حذاميك . ما أبدعك حافية ! هيا إذَن وأغرقِ قدميك فى الماء . واحذرى مزاح القواقع فأنه ثقيل . ولا بأس من أن تدعيهما تلقيان شِباك حسنهما على السمك ، علّهما أن تصيدا لنا قرموطاً متيماً ، أعِدُّ لك منه عشاءً شهيا .

سمّينى بهلواناً أو قَرَقُوزاً ، فليس هذا مما يغضبنى فى شىء . إنى لأحب القرقوزَ حبّاً جمّا . أوَما يروقك صوته الذى يشبه الزمارة ؟ وعكّازته العتيدة التى يقْرع بها صلْعةَ زميله ، فتُسمع لها من تحتها قعقعةً رائعة ، تذكّرنا بتلك التى

تُحْدثها مقرعةُ العريف على رءوس تلاميذه النجباء ؟

والمهم ، هو هل ما زلتِ على ظمئك ؟ نعم ؟ وما آخرة هذه النَّعم ؟ لم يَبق أمامى إلا أن أغْرقك برمَّتك . هيا وتأهبي لدفعةٍ من ساعدىّ القويين . ولكنْ ، انتظرى . هل تعرفين العوم ؟ نعم ؟ إذَن ما فائدة إغراقك ؟ لا . لِأدعك مكانك .

والآن يا آنسة ، ليس عندى لظمئك علاج . ابحثى عن طبيبٍ غيرى . ولا تؤاخذينى إذا ما قلتُ لك إن أطباء جهنم ، لابد أن يكونوا أبرع من تخصَّص فى علاج الظمأ . نعم ، فهم يعيشون فى مكانٍ ما تكفُّ نيرانه الحامية عن أن تبعث به إلى صدور من فيه .

ها أنت ذى تنظرين إلىّ حانقة ، وبودك لو أنشبتِ أظافرك فى عنقى . ما أبدع حنقك

هذا ! إنه كشوك الورد ، ولكن مثله جميل . ولكن وخز ، فلو خزه عبيرٌ ينسينا أذاه . بل وينفح عليه من أنفاسه ما يجعله برداً وسلاماً على قلوبنا .

ولكن ما رأيك إذا كنتُ أفهم سرَّ ظمئك هذا وأتخابث ؟ وأنه لو أتيح لي أن أعالجه ، لنجحتُ فيما قد يخفق فيه أطباء الجحيم ؟

نعم ، إن ظمأك من نوع ظمئي . وظمئي لو تعلمين ليس يشفيه إلا جرعةٌ من شرابٍ سحريٍّ يسمَّى بسُلاف العذارى . وهو ينبع هناك من عينٍ تجري في مَواطن الفم ، فمِك الجميل .

أوّاه يا عزيزتي ، وعَلامَ الخجل ؟ ألك أن تقولي لي لمَ تبدو الحقيقة أحياناً محرجة ؟ ما أجمل وجهك حين يوردّه الخجل ! وعينيك عندما تضلان في تيهه ! مَرْحَى للخجل هذا !

يتسبغ وجوه العذارى بالتيه والأرجوان !

هيا يا ساحرتى المعبودة . يا أجمل من وقعتْ عليه عيناى على كثرة ما رأتا . هيا واروى ظمئى . أسوةً بالزهور العطشة . تلك التى حظيتْ بعطفك . أوَ أكون أقلّ حظّاً منها ؟ إننى أنا ملكها كما سبق أن قدّمتُ لك نفسى . هيا ، ولا تؤْثرى علىّ عبيدى . هيا بربك . هيا اروينى . وثقى أنك أيضاً سترتوين . إننا أحياناً نشبع عندما يشبع غيرنا . الغريزة عندئذ تكتفى بالنظر . أمَا ترين إلى العذول وقد أخفق فى هواه ، كيف يحلو له أن يشاهد عاشقين يتبادلان القبل فى خميلة ، متسلّلاً إليهما بعينيه الجاثمتين من خلال الورق ، ثم يمضى إلى منزله العامر . وهو يقْسم بينه وبين نفسه بأنه قد قبّل فى يومه المنصرم حسناء ؟ هيا ولو أن فى التشبيه بعض الفارق .

ارويني . وأنا كفيلٌ بأنك عندما تريني ارتوى سيتطلفاً ظمأك . هيا يا حبيبتي . ادني مني . ها هما تان شفتاي تشبثان لتقبيلك ، كالموج أدرك المدّ تحت شعاع القمر .

إياي أن أفعل ؟ وإلا غادرتِ البستان من فورك ؟ حسناً ، ولِيّ الأدبار إنْ شئت . إن لي يدين تعرفان كيف تتشبثان بذيلك ، وتجتذبانك منه .

ماذا تقولين ؟ ستكونين في غضبك جادّة ؟ العفو ! إنك تكذبين عليّ يا « شِيرِي » . وعلى نفسك أيضا . هذا لسانك قد مرّ على شفتيك عفواً مندّياً جفافهما . تلك دلالةٌ طيبة . إن غريزتك غافلتْك ، وسخّرتْه ليفسر أحلامها . لقد كانت تحلم أن فماً ما بلّلهما ، لأنها كانت تتوق إلى ذلك . لا تحاولي . هأنذا أرى تلك الأحلام طافيةً على ثغرك ، وأكاد أقرأ ما تقول .

وأراهنك على أنها تقول : قبّلني .

في وسعي أن أتلقّى منك لطمةً تهوّشين بها على الموقف ، ريثما أختطف القبلة التي أريد وتريدين . ثم نعتدل في موقفنا وكأنني اغتصبتها اغتصابا . إنني أفهم جيداً مكر الجميلات . إنه مكرٌ عذبٌ مثلهن . ولكنني أعرف كيف أردّه إليهن بمكر أعذب . أعرف كيف أتركهن يتظاهرن بما يشأنَ وآخذ أنا ما أشاء . وبذلك أرضي الطرفين ، هنَّ وإياي .

نعم ، هكذا فلتبتسمي . هكذا وإلا فلا . على أي الأحوال فابتسامتك أعذب من تقطيبك ، وإن كان كلاهما جميلا . بروحي ابتسامتك هذي ! بروحي افترارك !

شكراً . تقولين كم أنا خبيث ؟ وخطِر ؟ نعم ، أصبتِ . أوَ تحسبين أن تجاربي تذهب عبثا ؟

فيما مضى كنتُ غِرًّا كالطفل . أصدّق ما تقول الغيدُ فما يلبثْن أن يغضبن منى . أمّا الآن فلقد تعلمتُ أن أعذب القول أكذّبه . وأنكنّ كاذباتٌ لأنكنّ عذبات . وإنى لأجيب على كذبكنّ بكذبٍ أشدّ أشرا ، لأغدر فى عيونكن جديرا بكذبكن الظريف ، فما تندمْن إذا ما كذبتنّ يوماً علىّ ، آخذاتٍ علىّ أنى فوّتُّ قصدكنّ عليكن ، ولا تلعنّ حظّاً عاثراً أوقفكن فى صحبة حبيبٍ أبله ، لا يفهم لغة الكذب ولا يستعذب مذاقه ، ويتطلب منكن الصدق على ثقل ظله على قلوبكن .

أرأيتِ أننى أفهمكن ؟ أوَ أدركتِ إذن قيمة الرجل المجرب ؟ أوَما يفضل هو الأطفال الغريرين ، الذين يتركونكنّ بظمئكنّ ويمضون فى خيبةٍ مضحكة ؟

أظننا الآن تفاهمنا . هاتى ثغرك إذن . قاومى

ما شئتِ ولا تخافي ، فستُهزمين وعلى أحسن ما تودين أن تُهزمي . لن يدركك النصر الذي يخيّب أملك .

هأنذا أخذتُ القبلة . القبلةَ التي ظللتُ أمهد لها دهرا . ما أجملها ! حقّاً إنها لتستحق العناء . تلمع على الشفاه كومض البرق ، وتختفي وقد خطفتْ معها لمحةً من الروح . لصةٌ وأيُّ لصة ! تسرق المهج العزيزة ، وبرضاء ذويها . وتزاول السطو أبداً وبيدها المِشعل ، مشعلُ الشوق الذي تضيء بلهبه ، وكأنها لا تخشى الضياء . إن الخوف ليس من دأبها ، ولا الظلام مما تأبه له . إنها اللص الذي ما يلبث أن يفتح له العشاقُ الأبواب على مصاريعها ويسألونه أن يدخل . إنها القبلة !

نعم ، إنها القبلة ، ولقد أخذتُها . وليس يضيرني أن فقدتُ بسببها بضع قطراتٍ من دمي ،

على أثر خَمَشَاتِك أيتها القطة البرية . إن رحيقك الذى يسيل الآن دافئاً فى عروقى ، ليعوضنى عما فقدتُ دماً أزكى وأشد حرارة .

ويحى ! أتضحين قبعتك وحذاءك ؟ أحان الوقت لنقول الوداع إذَن ؟ أمَا فى مُكْنتك المزيد من المكث ؟ كذا ؟ ما باليد إذَن حيلة . إلى اللقاء يا حبيبتى . يا ساكنةَ فؤادى منذ اليوم وإلى الأبد . برغم روحى أودّعك .

وداعاً وداعا ! وداعاً على قلبى عزيزا ! اذكرى حالَما تخرجين ، رجلاً يستعذب الكذب ، ويجارى من يكذبن . يجارين فى بساطةٍ فاتنة ، ومن دون ما عناء . ولا تنسىْ بَعْدُ أن تحضرى كل يوم .

٣١

لا تنكر الحبَّ لئلاّ تَخدعَ نفسَك . إن مصباحه لَمختلجٌ فى فؤادك ، فألهِبْ بزيت الجمال شعلتَه ، وعشْ مبصراً فى نوره .

وزدْهُ يُضِىءْ عليك فجأةً ويَكشفِ السرَّ دونك . وعندئذ ترى المِشْكاةَ الكبرى وقد تألقتْ وراح يبهر نورُها بصرك .

إنها لَهى السرُّ وفى مصباحك مفتاحُه . وإنّ على بصيصه الخافت ، ما تستطيع أن تتبين الطريق لِتصِل . فحاذرْ أن تطفئه لئلا تُغلِقَ على نفسك وتمحو بيدك عنوان وجودك .

كنْ كسائر الكائنات حتى ما كان منها لا يَعقل . وانظرْ إليها وتَعلَّم . انظرْ تَرَها جميعاً تضاء بتلك الشعلة المقدسة ، وتكافِح ملهَمةً لكيما تندمج فى نورها الأزلى .

كنْ ملهَماً مثلها . ولا تجعلْ من عقلك نقمةً عليك . وإياك أن تتْبعه وأن تطيع شكوكه . وأعرِضْ عنه إنْ هو أرابك فى فؤادك . إنه هو الشيطان يُضلّك ، وأمّا روح الله ، ففى القلب كامنة . كامنةٌ فى قلب كل مخلوق ، تلهمه حقيقة السر ، وتقوده إليه من دون ما جهد .

تعلّمْ عن الملهَمين الحكمة . واعلمْ أنه لا يعيش فيهم عقلٌ يضلّهم . وأن الإلهام هذا ليس بالأمر العبث ، لأنه مَظهرٌ ، ولكل مظهرٍ قوةٌ من وارثه تدفعه . وأنه أبداً على صواب ، لأنه ليس نتيجةَ لموازنةٍ تحتمل الخطأ ، وإنما هو إرادةٌ تسير . وإنها لإرادةُ مسيّرِ الكون . وإرادةٌ لابد قد سبقها فكْر . فكْرٌ من خلَق لك العقلَ ومنَحه الحرية ليفكر . ولا تنسَ أن من وهبك العقل وسمح لك بأن تزِن به ،

أقدرُ منك حين يزن هو . وأنه حين يفْرغ من وزنه ويريد ، يلهِم إرادتَه مَن شاء من عباده . وأنه سبحانه إنما يتخيرهم ممن يصيخون لوحي إلهامه . فأصِخْ إذَن للوحي . وادْنُ منه يُقْبلْ عليك . وسَلْهُ يغمرْك . وا أسفاه لك ! لولا عقلك لَمَا احتجتَ إلى أن تبذل العناء لكي تدنو ، ولا أن تسأله . ولَكنتَ وكان وحدةً ما تتجزأ . يَأمر فتسير ، أو يَأمر فتقف . وفي كلْتا الحالتين تطيع من دون ما جدل . كأنك أنت الإلهامُ والملهَم معا . ولكنْ قُضِيَ الأمر فما لك حيلة . فلْيكن إذَن أنّ عقلك يهديك إلى الأخذ بإلهامك . ولا تدعْه يستكبرُ عليه . ومرْه يفنى فيه ، ويَكِلُ الأمر إليه .

نعم . خذْ ما استطعتَ عن الملهَمين طريق السير . ولْيكن أخْذُك عن الكائنات الأكثر

إصاخةً للإلهام . خذْ عنها أن الحياة حب . وأن غاية الحب اندماج . وأن فى الاندماج شرفاً ونعيماً مقيما .

أفما رأيتَ إلى الأغصان كيف تتعاطف ثم تَعتنق ؟ وإلى الأطيار كيف تتناجى بأعذب النغم وأرقّه ؟ وإلى الزهر كيف يُذيع أشواقَه فى عَرْفٍ زكىّ ، ويتوسل إلى النسيم كيما يحمله ؟

أفما رأيت إلى البرق كيف يُلهب بقُبلاته وجَناتِ السحاب فتحمرّ ؟ وإلى الجدول كيف ينساب غافياً وكأنه من حبه فى حلم ؟ وإلى القمر كيف يفترّ ثغره عن ابتسامة الواله ، وترتسم على عينه غمزةُ الغَزِل ؟ وإلى ورقة الغصن كيف تترقرق عليها دمعةُ الصب ؟ وإلى الموج كيف يرقص وكأنه بخاصر غانية ؟ وإلى النجوم كيف تقْضى سهَرها الطويل وهى دائبةُ الخفق ؟ وإلى

الصبح كيف يضحك وكأنه قائم من لقاء ؟ والليل كيف يقطّب كما لو كان قد أضناه الحب أو لوّعه الفراق ؟

أفما رأيت إلى الورد كيف يتضرّج خجلاً من صبوته ؟ وإلى الأقحوان كيف اصفرّت من الوجد وجناتُه ؟ وإلى النرجس كيف سكرتْ من خمر الهوى عيونه فبدتْ ناعسة ؟ والبنفسج كيف فاضت عليه كآبةُ قلبه الكليم فاغتمّ ، وأرغمتْه الهمومُ على أن يطرق برأسه ؟

كل شيءٍ نابضٌ بالحب مسخّرٌ له . ذلك أن الله سبحانه قد زوّدنا من جمال ذاته العلوية بما أوقد فينا مشعل الحب الأزلى ، وأرادنا بهذا على أن نسبّح به فى شخص ما سوّى من جمال ، وأن نعْرفه تعالى عن طريق خلْقه .

٣٢

واهاً لي ! لقد بدأتْ تهبُّ عليّ من بساتين الفؤاد ، طلائعُ نسيمِ حبٍّ قديم ، وينتهي إليّ من خمائلها بصيصٌ من نور مصابيحها الخابي ، فما يلبث أن يعود بروحي إلى أحضان ماضٍ جميل ، لم أعرف الهناء الحقّ إلا فيه ، رغم ما اكتنفَ لياليه من سهادٍ ما أراه إلا كحّل بالضنى عينيّ ، وخضّله من دموعٍ ما أراها إلا زانته بلؤلئها النضيد .

وإن النورَ ليشتدُّ رويداً رويداً حتى لَمَا تعود تقْوى على التفتح في وهَجه عيناي ، كأنما يدُ جنّيٍّ قد صَبَّت في مصابيحه من زيتٍ سحريٍّ رَدَّ على نورها ماضي أليقِه . والنسيمَ ليزداد خفقُه كلما أمعن في السُّرَى كأنما تنفّس فيه ربيعٌ جديد ، ويأتي إليّ محمّلاً بالعطور والأشواق ، فما ألبث أن أرتعش تحت ملمسه

ارتعاش أوراق الزهرة فقدتْ إرادتها أمامه .

ويحكَ لك أيها الصب ! أىُّ شعورٍ ذلك الذى راح يَتَخالج صدرك ؟ وأىُّ شيطانٍ لَمَسك فأيقظ فيك الحب من جديد ؟ وأين كانت أنوارُه هذه مختبئة ، ونسَماتُه تلك ثاوية ؟

لا حيلةَ ، فلقد عاد يحمك وإياها السحرُ الذى قد كان جمعكما تحت الله . فهيا وودِّعْ من جديدٍ أيام خُلُوِّك ، وذَرْ عيشك الذى مَجَجْتَ فى خدور من اتخذتَ منهن لك عشيقات ، ثم ارجعْ أدراجك إلى من فتنتْ فؤادك من قديم ، وانزلْ على حكم الزمان .

وعجِّلْ ، فأن بالقلب من حبها لَنَزَقاً يجعله نافدَ الصبر . وليكنْ فى هذه الليلة إلى قصرها مسْراك ، حيث تقف ببابه وقفةَ الآثم ندِم على ما اقترفتْ يداه ، ذليلاً خافضَ الرأس ،

حتى إذا ما مثلتَ بين يدىْ من جئتَ تسأله الصفح ، خررتَ على الأعتاب تعفِّر وجهك ، وأنت ما تكفُّ عن أن ترفع بين الحين والحين عينيك إلى السماء ، ريثما تسأل الكواكبَ والزهورَ والأطيار التى رأت حبكما وكانت عليه خيرَ شاهد ، أن تشفع لك عنده .

٣٣

عبثاً حاولتُ أن أسلوَكِ بغيرك — يا زهرةً بزَّتْ بحسنها لِداتِها الزهور ، ويا أولَ من غنَّى لها فى الشوق طائرُ الفؤاد .

لقد كانت ساعةً أطلقتُ فيها جناحىَّ من أسْر حبك ، وجوَّبْتُ الرياضَ رياضَ الحسْن ، عابثاً متنقلاً ، مغازلاً كل زهرةٍ مُطارحاً الغرامَ كل غصن ، عسانىَ أن أنسَى حبك الذى برَّح بى ، فما نسيتُ وعهدُ ذاك أشْوقَ مما كنت .

ويعلم الله كم كنتُ أتبرم بالحرية وأنا من هواك طليق ، وأحنُّ للقيد الذى قد كان به كبَّلنى فعلمنى حلاوة الأسْر .

وعندئذ أيقنتُ أن للذل فى الهوى مذاقاً جَميلا ، ولمتُ نفسى على أننى أردتُ أن أرفع لِى فى الحب هامةً عهدْتُها عند قدميك سعيدة .

ألاَ فودِّعْ يا فؤادى رياضاً نزحتَ إليها فى لحظةٍ من لحَظات عقوقك ، وطِرْ إلى أيكك القديم حيث تتربع على فرعها زهرةُ صباك ، حسناءَ يكاد أن يكسف نورُها الشمس ، ذاتَ دَلٍّ كأنها بين أترابها الزهور أميرة ، وغنِّ واسكبْ فى مسامعها أناشيد هواك من جديد .

واغسلْ بدموع ندمك أوضار الأحزان التى خلَّفها فى فؤادها الكليم هجرُك . واجْثُ عند قدميها مستغفراً علَّها أن تصفح عنك وتقبل

عوْدتك .

فأذا ما رقّ لك فؤادُها والعهدُ فيه يَرِقّ ، فأعيدا معاً عهود حبكما العذريّ ، وليالى الضنى والسهاد الماضية ، تلكما التى لم تعرفا الهوى الحقّ إلا فيها .

وغنّ لها كلما تبسّم ثغرُها فى وجه الصباح ، أو تألقَ الندى فوقها فى الفجر الذهبيّ . حتى إذا ما ترنحتْ طرباً مع النسيم على إيقاع نغماتك ، فترنّحْ بدوْرك واطربْ كما يا طالما قديماً طربْت .

وانْس إلى جوارها أيام اليتْم التى قضّيتَها بين الزهور الأُخَر ، شريداً موزّع القلب ، كورقة الشجر فى مهب الرياح لا مهبط لها ولا مستقَرّ .

٣٤

تبًّا لِ مِن جارحٍ بالغدر قلبَك ! — يا زهرةً تسرَّبَ الشحوبُ إليها مِن بَعد تورُّد ، وعلى عنقها ذلاًّ تميلُ من بَعد تيهٍ واعتزاز .

أتُرَيْنَ وإنْ تظاهرتِ بالعفو ساعةَ استعطفتُك ، قد أبَت كبرياؤك الجريحةُ أن تصفح ، وأنك ما سمحتِ يومئذ ليدك بأن توضع فى يدِى ، إلا رعايةً لحبٍّ قديمٍ لم يزل مستكنًّا بالفؤاد ، وعلى كرهٍ منك كما يقْرب المريضُ أحياناً طعاماً يعافُه ؟

حقًّا إنّ جرْحك ما هو مما يندمل ، ولا ذنبى مما يقْبل الصفح . فسلامٌ على أيامنا إذَن ، ما التقَى على الرياض من بَعدنا عشاق ، وأذاعوا مع الزهور أشواقهم عطِرة . سلامٌ من آثمٍ دفَنها فى لحظةٍ من لحَظات عقوقه ، ثم انثنى عليها

يبكيها ويسألها المغفرة . وحين قرّح البكاءُ عينيه على غير طائل ، أدرك أنّ عبثاً ما توقّع لها أن ترجع ، وأنه هيهات للدمع أن يغسل ما اقترفت يداه .

والأسى عليك تعيشين على رغم الشباب منطويةً على جرحك ! وكلما مرت الليالى عليه توغّل فى جسدك الرقيق فأبلاه .

تُرَى ماذا هو فاعلٌ بك غداً ، ذلك الجرح الثخين ؟ وهل يؤمّل الصبُّ فى أن يعود إليك ماضى ازدهارُك ، أم أن عُودك قد اصفرّ واكبدى إلى الأبد ، وأنك عما قليلٍ ذاوية ؟

٣٥

حبيبتى ! أميّتةٌ أنت ؟ أتلك التى ترفرف على رأسك الجميل سكينةُ الموت ؟ وذلك الذى

يغْمض الآن أجفانَك كراه ؟

لا والله ما هـذا الشحوبُ لورْد خدك !
ولا ذلك الغمضُ لساحرِ جفنِك !

إى والله لم يحنْ بَعدُ الوقت ! لم يحنْ بَعدُ وكل هـذا الشباب فيك ! لم يحنْ وكل هذا الجمال على جسدك يبْسم !

أمؤذِّنتى بالبَيْن الطويلِ ، ألغيرِ ما أوبةٍ ترحلينَ فما وإنْ طال بنا الانتظار عدْنا نلتقى ؟ وافترقنا فلا العينان اللتان كم كنتِ بحسنك كحلتِهما عادتا ترياناك ، ولا الأذن التى يا طالما عشقتْ صوتك الرخيم عادت تَسمعك ؟ وعفَّى على حبنا الزمانُ ، فلا الربَى عادت تَشهد مَقْدمنا ، ولا شجرُها الظليلُ عاد علينا يُفىء ؟

آه ، يا ليتك كنتِ فى ركابك أخذتنى ، أو أنك وقد انثنى يُهيب بك الفؤادُ عدتِ لصبِّك ؟

ولكن هيهات ! وهل كان فى وسعك أن تفعلى ؟
فتأخذى الصبَّ المشتاق ، أو عن رحيلك تعْدلى ؟

لِمَن تركتِنى ؟ لِمَن بربك ؟ وأىُّ خيرٍ
فى الحياة لى بَعدك ؟ أجيبى ! أجيبى موجعك !
أم أن تلك الكأس التى سُقيتِها قد أخرستْك
إلى الأبد ؟

لمَ لا تجيبين ؟ ألستِ معنا ؟ أوَ ليس هذا
الوجه وجهك ؟ وذلك الفم ذو النغم الجميل
فمك ؟ إذَن ماذا الذى أسكتك ؟ وما لِصرَخاتى
تموت على أذنيك فما تبْلغهما ؟ وعينيك ترمقانى
من خلال أجفانك المسجَّاة وكأنهما ما تريانى ؟
ما لك ؟ ما لك بيننا وكأنك لست هنا ؟ أين
أنت الآن ؟ وأىُّ سَفرٍ طويلٍ ذلك الذى راح
بغيِّبك ؟ وفى أية مرحلةٍ لعمرى أنت الآن منه ؟
تُرَى بلغتِ فى مَسْراك السحُب ؟ أم إلى الرفيق

إنى لك يا حبيبتى ، وبعينيك على ذلك أقسم . لكِ ، رددتِ علىّ حياتى أم أهدرتِها . توّجتِ بالوصل جبين أيامى ، أم تركتِها بالهجر يتيمة .

وإنى لأنكر أياماً لستِ فيها ، وأعيش ما غاب عن أفقى وجهُك عالقاً على أيامنا الماضية . أعود إليها بروحى كلما انبثق فجرُ يومٍ جديد ، وأقف ببابها وقفةَ السائل تقطر الذلةُ من جبينه وعليه من الثياب أطمارٌ بالية ، أستجديها خُلَساً من نعيمٍ زائلٍ حبتْنى به يوم أقبلتْ مضيئةً علىّ حياتى ، فلما أن مضت أخذتْه معها فى ركابها وتركتْنى وحدى أشتكى اليتْم .

وبعد أن أُمْضى سحابة يومى أمدُّ بالسؤال يداً وأقبض أخرى ، أعود وقد برّح بى الضنى خالى الوفاض ، اللهمّ إلا من كسرةٍ من شبح الذكريات قُدّت ، تُلقى بها إلىّ من عقب الباب ، أتبلّغ بها إلى حينٍ وأستعين على

مواصلة القليل من أيامى الباقية .

٣٨

تالله أفتأ يا حبيبتى أذْكر ، يومَ التقينا على الأصيل والروضُ يجمعنا خميلُه . ولبثنا نتطارح الهوى ناعمَيْنِ إلى أن سَخِر القضاءُ ونقَّتْ ضفدعة ، فانتبهنا وإذا العذول مِن بُعدٍ يلُوح وقد عفَّرتْ ريحُه الأرضَ وبحثتْ خُطاهُ قرقعة .

وعذولى ثقيلٌ كثيرُ الفضول وإن لم يزد فى قومه عن إمَّعة . فانطلقنا ركضاً من فورنا عسانا أن نهتدى إلى مخبأٍ آمنٍ ما يشوب المُقامَ فيه رقيبٌ أو تعكر الجوَّ فيه منه زوبعة .

وواتتنا الحظوظ إذ غرد بلبلٌ فهدانا إلى أجَمةٍ من خيزرانٍ كان قد أقام فوق عروشها وكْره . معتمةٍ حَجبتْ أعوادُها وقد تكاثفتْ

عن قلبها الضوءَ ، مَن يراها يرى الليلَ من شدة الظلامِ ، أو الضبابَ تجمعتْ أشتاتُه .

ووجدناها دغَلاً آمناً ، ما تحوم من حوله شبُهاتٌ ، لا ولا ترقَى إليه رِيَب . واعتنقْنا فأذا الظلامُ تُوارينا على رغم النهار سدولُه . وحناناً من لَدُنْه ما راح يهزُّ علينا من عبَقٍ ، إنْ هو إلا مما تنفَّس الزهرُ فيه ووعاه مثلما وعَت الثيابُ الذِّكرَ .

ولقد ظللْنا برهةً وكأننا السكارى مِن نَشْقِنا النفحَ لعبتْ برأسهم النشوةُ فمالوا وترنحوا . وكنا كلما التقت على الظلمة شفتانا ، تضوّع البخورُ كثيفاً من سجوفها العنبرية ، كأنما لمستْه من قُبَلنا نارٌ فهبَّ مذعوراً وقد حلَّقتْ في الجو أشلاؤه ، ثم انثنت كرَماً تضمِّخ جبينينا التهِبين . على حين يفد النحلُ وقد هَداه العبَق ،

فيطوف بنا فى دوراتٍ رتيبة ، وهو يُسمعنا من أزيزه الواحد القرار ما يشبه ترتيلَ راهب .

وهكذا باركَنا الظلامُ ظلامُ الدغَل ، واحتوانا منه شبهُ مَعْبدٍ كأن مِن أسْود المِسك حيكتْ أستارُه . تُضاء علينا فيه مِن شموعٍ مِن بُرَحاء الشوق تتوقد ، ويُضمخنا كلما حلّ برأسينا التعَبُ بخورٌ من زهور ما أراها إلا بالمحبين حَرِيّة . قسّيسُهُ النحلُ يئزُّ علينا بما يشبه الترتيلَ ، ونحن منه العروسان يكللنا ويتلو من حول رأسينا الرُّقىَ . والقلبُ مِجْمَرُهُ ، والحبُّ مذبحهُ ، والضحايا الأشواقُ ما تُراق عليه إلا زكية .

وما راعنا إلا أن يضاء علينا من أشواقنا فجأةً ، فيرانا من مرْبضِ العذولُ ويأتينا يجرجر نحسَه . غير أنّا كنا كلما التمعتْ ببريق الوجد

أعيننا فكادت أن تَهتك حُجُبَ الظلام ، عاجلَنا الحمامُ بأغانيه النعاسيَّة ، تلك التي حفِظها عن العشاق من منذ القِدم ، ورواها مِن بَعدهم لكل صبٍّ مستهام ، فما إن تمرّ على أجفاننا مَرّ الوسَن ، حتى تتراخَى لها أهدابُنا وتحملنا على أجنحتها الأحلامُ إلى مخبأٍ في الفردوس سحري ، حيث تمضي نتبادل القبل غير مسموعة ، ونهتك الظلماتِ ببسَماتٍ تبعث النور غير منظور .

حتى ما إذا انتبهنا على صوت شادٍ جديد ، من بلبلٍ على غصنه شاردٍ ، أو كروانٍ يجوب الآفاقَ شريد ، نهضنا ننْفض عن أعيننا غبَر الوسَن ، ونجْمع ما شتّتت الأحلامُ من لبّنا . والتفتنا فأذا الدغلُ على عهده عاطفٌ ، وإذا العطور من جنَباته تتضوّع .

آه يا حبيبتي ، تالله أفتأ أذْكُر ! ولكنّ

الحياة نسيان .

نعم أذكرُ . ولكنْ أنت ، أتذكرين ؟ أتذكرين وعيناك فى التراب مغمضتانِ ، ورأسُك الجميل غائبٌ رهنَ البِلَى ؟

إنى أذكرُ . ولكنْ هل يذكرُ الدغَل ؟ هل يذكر الحمامُ أنه غنَّانا ، والنحلُ أنه أزَّ علينا وراح يتلو حوالينا الرقَى ؟

وهل تذكرُ الرياضُ أننا يوماً ما جنَيناها ؟ أو الخمائل أننا اعتنقْنا بينها ؟

وهل يذكرُ العشبُ أننا توسدناه ؟ والطرُقاتُ أننا وطئناها ؟ ثم هل تذكر هذه خطواتِك الموقَّعة ؟ أو ذاك تقلباتِ قدَّك اللدْن ؟

وهل يذكر الغديرُ أنياء جسدك الناعم ، الذى طالما سبَح فيه وغاص ؟ والبحيرة ؟ — تلك التى طالما أطفأتِ فى مائها قدميك كلما ألهبهما

التعب ، أتروى هى شيئاً عنهما ؟

ثم هل يذكر الورد ؟ هل يذكر حمرةَ خدك ؟ أو الياسمينُ نصوعَ جبينك ؟

وهل يذكر النرجسُ عينيك الناعستين ؟ أو الغصنُ قدَّك الممشوق ؟ أو الموج صدرك الناهد ؟ أو النسيم أنفاسك العطرة ؟

ثم هل يذكر الندى دموعك ؟ أو الصبح بسمتك ؟

كلا ، لا شيءَ يذكر . نعم ، لا شيء يذكر . لقد طوتك الأيام وطوت معك حديثك . ونسيتْك الحياة التى وعتك يوماً وتوَّجتْ جبينها بجمالك ؟

ولقد فرغتْ منك الرياضُ لتذْكر غيرك . والزهورُ التى كانت تهشُّ لطلعتك ، قد وجَدت شمسَها فى سواك .

لا شيءَ الآن عاد يسبِّح بك أو يذكُرك .

الكلُّ نَسِي . ولم يبقَ سواى يَذكر . وعما قليلٍ سوف أُنسَى ، حين أصبح أنا نفسى فى ذمة النسيان .

فالعفاء علينا إذَن ، والبقاء لغيرنا والحب .

٣٩

يا بناتِ الوادى خبِّئْنَ عيونكنّ السود عنى . لقد ذكّرْنَنى بغادة الضواحى ربةِ العينين السوداوين والجفون الكحيلة . تلك السمراءِ ذاتِ الشَّعر الفاحم المنفوشِ ، والساقين اللتين من الشكلاتِ صُبَّتا . جَمعتْ فى جسدها ظلمةَ الليل على لهب مصابيحه . مَن رآها يَرى الظلامَ البربريَّ ، وعليه من الهمج جَوارٍ يوقدْن الحطب . فى أحشائه جمرٌ يحزّ ، وعلى الصدر لهيبٌ وشرر . وإما يتقلب اللهبُ فيه يزجِى

حوله الأضواءَ دموية . يَلفح إذ تتذبذبُ حرَّها الوجوهَ ، ويعود بالقلب إلى مَواطنه الخفية . حيث الشهواتُ ليست إلا نيراناً تَأجَّجُ فى كهوف النفس المظلمة .

رأيتها ذات يومٍ تخطر بين المروج فى رهطٍ من العذارى لداتها ، والحصى تحت خطواتها الموقَّعة يرقص . يكاد كلما نَقلتْ ساقاً أن يشبَّ ليلثمها ، أو دقَّتْ بقدمٍ عليه أن يُوَطِّىء خده . وأنىَّ تسيرُ ترمى اللحاظَ ذاتَ الشمال وذات اليمينِ ، اللهُ للقلوب من سحْرها !

وأصابنى سهمٌ من جفنها نفَذ إلى القلب الذى أنشأ يترنحُ ، وفى حجته استقرَّ . فتوجهتُ قائلاً قلباهُ ، وتابعتُ سيْرى فى خطىً تتعثر .

وتريثتُ حتى تفرقَت العذارى ، فتبعتُ عن كثبٍ سمرائى ، أرقب واللبُّ منى شَريد ، ساقيها

المتلئتين وهما تتنقلان ، وتحصرها النحيل وقد راح ينثنى كالغصن وأجمل .

وبدا لى أن أجرب حظى ، فضاعفتُ الخطا ، وواجهتُها ، وقبل أن تتنبه للأمر كنت قد ركعتُ عند قدميها هاتفاً : مولاتى !

وصعّدتْنى بنظرةٍ ساجيةٍ ، وتساءلتْ فى تيهٍ : مَن ؟ قلتُ قتيلٌ جاء يطلب المزيد من الموتِ ، فضحكتْ ساخرةً منى .

قلتُ أمَا ترقّين لحالى ؟ أما تعتبرينى واحداً من أولئك المحظوظين عبيدك ؟ ترمين إليهم بنظراتك التيّاهة من عَلٍ ، فيتلقفونها فى لهَفٍ مثلما يتلقف الرشاشَ النبتُ الظامىء ؟ خذينى ولو بستانيًّا عندك . أفرش لك طريقك بالرياحين ، وأجفف الندَى من على مقعدك كلما راقك أن تجلسى . وأجمع إمّا قدِمتِ لك الزهورَ وأنسّقها

طاقاتٍ تتلهين بها فى وقت فراغك. وأقطف لك الفاكهة الناضجة وآتيك بها فى سلالٍ من سَعَفِ النخل أصنعها بيدى. وأجنى لك الشهد من خلايا النحل غير مكترثٍ لأبره، وأقدمه إليك يترجرج على ورق الموز. وأمسح بأوراق الورد خداك الصغير كلما عفّره التراب من طول السير. وأغسل بالماء المعطّر يديك البضتين كلما بدا لك أن تغرسى بنفسك زهرةً فتلوثتا. وأضمّد ببذور الحناء ساقك إذا ما عثرتِ وأنت تعْدين فى أثر الفراش فانخدشَت. ثم أسير وراءك وأنت مارّةٌ تستعرضين زهورك، فى انتظار أوامرك لكى ألبيها وأشكرك.

وانتصبتُ واقفاً أنتظر الجوابَ، وافترّ عن بسمةٍ ساحرةٍ ثغرُها، ولمْ تجب، وواصلَت السير تاركةً إياى لا ألوى على شىء.

وبلغتْ قصرها المنيفَ، ودلَفتْ من باب

بستانه الخشبي . وكما تغيب الظبيةُ النَّفورُ في حرَشها ، غابت بين الأشجار الباسقة .

وأبَت قدماي يومئذ أن ترجعا ، فربضتُ عند السياج مفترشاً الأديمَ ، تواريني عن العيون لبلابةٌ قد استطالت دواليها . وجعلتُ أنشق وأنا في مكمني ، أنفاسَ فاتنتي مختلطةً بعبَق الزهر .

وأقبل الليلُ مرخياً على المشرَّفين سدوله ، وساد الضاحيةَ ظلامٌ اللهم إلا بصيصاً من أنوار المصابيح ضئيلاً ، على أطيافٍ من أشعة القمر باهتة .

فغادرتُ مطمئنًّا مخبئي ، وأخذتُ أطوف بالقصر مدقِّقاً النظر في شُرُفاته ، علَّني أن أحظى منها بطيفٍ سانحٍ ، أو يطرقَ أذنيَّ من صوتها الحنون رشَّاش .

وحالفني الحظُّ إذ لمحتُ على الشرفة الكبرى

ظلّها ، وانتهى صوتُها إلىّ وهى تَأمر فى الخدم وتنهى .

وإذ جَنَّ الليلُ وأُوصدت نوافذُ القصر فأيقنتُ أنها للنوم آوت ، ثم بدأت طلائعُ العسس جولاتها على الطرقات التى خلَت وقتئذ من المتسكعين إلا منى ، آثرتُ ألاّ أُصيخ أكثر مما أصختُ لوسوسة الشيطانِ ، وأن أعود إلى المدينة أدراجى وأبادر .

ولقد شقَّ علىّ أن أقنع من الغنيمة بالإيابِ ، فمددت من بين قضبان السياج يداً ، وسرقتُ أصيصاً تَنبت فيه قرنفلة . وقلتُ ، ذا شىء من رائحتها ، فليكن تذكار مغامرة الليلة .

ورأيتُ أن أطفىء لمحةً من ظمئى ، فقبّلتُ ما خلتُه تخلّف من تراب قدميها على عتبة الباب

ومضيت . ووهماً كان ذلك الذى خدعتُ به نفسى يومئذ ، وكذباً يعلم الله أىّ كذب ! فما التراب كان لقدميها خالصاً ، ولا لثمه إن أتيح بالذى يشفى الظمأ . ولكنّ الهوى مثل الجنون فنونٌ ، وللعاشقين فيه على شتّى المذاهب أحوالٌ عجب .

وحمل إلىّ النسيمُ وأنا فى القطار ما خلتُه أنفاسها آتيةً من أصقاعٍ بعيدة ، ثم أخذت تنساب رقيقةً إلى صدرى كأنها نسماتٌ من الفردوس هابطة .

وكنتُ كلما أطللتُ من النافذة خيّل لى أننى أرى طيفها يتعقبنى بسحره عادياً فوق الحقولِ ، طاوياً المسافاتِ طىّ السُّحب ، فيُسرّى عنى وما ألبثُ أن أُونس بالتطلع إليه وحْدتى .

وكأىٍّ من مرةٍ تحسستُ والقطارُ ينهب بى

الأرض ، موضعَ الطعنةِ طعنةِ حبها من قلبي ، فما إن أجدُها حتى أحمد الله وعلى عذابي أطمئن . لقد كنتُ أطمع وقد فرقتْ بيننا الديارُ في أن أراها وقد سكنتْ فؤادي على الأقل .

وقضيتُ ليلتي حليف السهادِ ، وإذِ انبثق الصباح قصدتُ إلى ضاحيتها مبكراً لكيما أكون في ركابها الفاخر عندما تخرج .

وأقبلتْ تتهادى في مشيتها ، ووراءها من المعجبين فصائلُ وفلول . فلم تلبث أن اجتاحت فؤادي عاصفةٌ من غيرةٍ حمقاءَ ، ورأيتُني أتهاوى على نفسي كهشيمٍ يحترق .

وانتحيتُ بنفسي جانباً وقد اعتمدتُ رأسي المثقّل في راحتي ، وجعلتُ أنقل النظر بين آسرتي وعبيدها ، وفؤادي مِن وجَفٍ يذوب على مصيره .

وجاء القطار فرمتنا جميعاً بنظرةٍ قاتلة صرعتنا من جديدٍ ، ثم مشت على جثتنا واستقلته إلى المدينة .

وتركتنا مثلنا مثلُ الجرحى فى ميدان حربٍ ينظر العدوُّ منهم إلى عدوه وهو يتناسى الأحقاد ويعطف . لقد كان جمعنا الشقاءُ على مِرْجلٍ واحدٍ ، فوفرنا على أنفسنا متاعب البغضاءِ ، واكتفينا بالنار تدْحر للغريم منا غريمه .

وثابرتُ على الانتظام فى موكبها شهراً كاملاً ، فما زادتْنىَ الأيامُ إلا لوعةً ، ولا الليالى إلا بعداً عن الأمل الذى إليه صبوت .

فأقسمتُ لأحرِّمنَّ على نفسى طريقَها أبدَ الآبدينَ ، وبررتُ بقسمى نصف عامٍ ذقتُ فيه الأهوالَ من ألم البعد .

وساقتها إلىّ الأقدارُ مرةً فى طريق ، فما

رفعتُ إليها خشيةَ اشتعال الوجد عيناً وإن أكن لم أنجُ من طيفها يزيح الرماد عن جمرٍ بالقلب لم يزل يتوقد .

وأويت لدارى محموم الفؤادِ ، ولم أكن أعلم أن إغضائى قد مَسَّ بالمِشعل من قلبها الذبالة .

ووافتنى ضُحىً فى حديقتى ، وكانت قد علمتْ بأمرى ، وأتتْها عن بُعدِ شهرتى الأنباء .

ورأيتُها وأنا مكبٌّ أقضّبُ بالمنجل حشائش بستانى ، فخففتُ إليها فاتحاً قلباً للقائها وذراعين .

ومضت تستميحنى عن سابق صدِّها عذراً ، فغفرتُ لها من إساءتها ما تَقدَّمَ ، وشكوتُ وشكت ، وبكينا يومئذ معا .

ولبثنا عاماً وبعض عامٍ كحمامتين جمعتْهما أوْثقُ الألفة فوق أنضر الأيك . نطير إذا ما انبلج الصباح إلى الرياضِ ، وإذا ما الليل أقْبل

عدنا كلٌّ إلى عشه .

ولكم غنينا معاً فوق الغصون فدرّنا مع الظل الحزين بهديلنا الشاكي ! ولكم حوّمنا معاً فوق الحقول والتقطنا من سنابل القمح الحَبَّ الذهب ! ولكم ، ولكم ، فوق الجداول حلّقنا وصفقنا في مائها بالجناحين !

ثم كان ما كان وعادت الجميلةُ تحنُّ للصولجان ، وطالعها من أعواد وكتنتنا المتواضعة عرشُها القديم بأبهته وجلاله . فاعتزمتْ في نفسها أمراً ، وراحت تَزْوَرُّ مني فازورررْت .

عبثاً يحاول الجمال الفذُّ أن يقنع من متيّميه بواحد . أوَما تَراه لم يُخلق فذّاً إلا كي يَسُود ويَحكم ؟ كلُّ حسناءَ في حيها ملكة ولها من المعجبين رعية . والملكة إذ تَحكم لا تحكم عبداً واحداً ، وإنما شعباً ما تُحصَى عبيده .

وهكذا عادت ربةُ التاج على عرشها تتربع ، غير أني لرعيتها هذه المرةَ لم أنتسب . لقد ساءلتُ نفسي لمَ لا أحكُم مثلها ، وتكون لي من لداتها الجميلات رعية ؟ إنْ تكن حَكَمَتْ بسلطان الجمال فلمَ لا أحكم بجبروت الرجل ؟ وكان أن حَكمتُ ، وكان أن كانت لي في يومٍ من الأيام دولة .

وهكذا فرَّقَتْ بيننا سورةُ المُلْكِ ، غير أنَّا لبثنا لِماماً نلتقي ، وكما يلتقي ملِكٌ وملكة . تجْمعنا مناسباتُ التاج ما بين حينٍ وحينٍ ، فيؤدي كل واحدٍ منا المراسمَ لزميله ، وفي قلبه من جهته احترامٌ ، وفي نفسه منه خشية .

والتمسنا كلٌّ لصاحبه العذرَ اعترافاً بما لصولة المُلْك من سحرٍ ما يقاومَ . إلى أن غدَر الزمانُ والزمنُ حُوَّل ، فاندكَّ عرشي وتقوَّض عرشها ،

وانزوت وانزويتُ كلٌّ فى عقر داره .

يا ربةَ العينين السوداوين كالليلِ ، والجفون الكحيلة — سلامٌ من فؤادى عاطرٌ ، علِمَ الله ما أقرأتُكِ إياهُ ولكنْ زمانَك . لقد ذهب عنك السحرُ الذى كنتُ أحببتُ ، وزايلتْنى البشاشةُ التى قد كانت شغفتْك بى حبا . فما أنا اليوم بمحبٍّ ولا أنت عدتِ بعاشقة . ولكننى لا ريب أَذكر وتذكرين أن حبًّا ما قد كان ربط قلبينا فى الأيام الخالية .

سلامٌ على هذا الهوى إذَن ما هبَّتْ عليه من خمائل الأمس البعيد نَسمةٌ ، أو طرقتْ مِسمعيْه من صدى طيره المردَّد همسة .

وانتنَّ يا بناتِ الوادى يا ذواتِ العيون السود وعليها من السحر بريقٌ ووهَج ، أمَا حجبتنَّ عنى أجفانكنَّ الكحيلة ، لئلا تذكِّرنى

بأيامى الخوالى تلك ، وتستدرنَ من مآقىّ الدموع الطاسجة ؟

٤٥

قَرّ عيناً فى قبرك يا « سعيد » . ها هو ذا « حلمى » يوافيك ويرقد إلى جوارك . « حلمى » شقيقُك . يا من كنتما لِى شقيقين !

أجَل ، ها هو ذا ولمّا ينقَضِ على افتراقكما عام . كأنّ بُعدك شفّهُ فخفّ إليك . أو كأنك دعوْته من القبر فلبّاك .

جدّدا الأشواق إذَن ، إن كنتما ما تزالان تَعرفان الشوق . ودَعانى وحدى الذى أشتاق على البعد وأتعذب .

ها أنتما ذانِ متجاوران ، ليس بينكما غيرُ قبضة يد . ها أنتما ذان وكما ستظلان إلى الأبد .

زال الفراق الذى كنتما تشكوان ، وما أنتما بَعْدُ بشتيتيْن .

وما مِن سفرٍ عدتما تخشيان وإن أعقبتْه أوبة . أو تفرُّق فى مناكب الأرض وإن يكُنْ لِلِقاء . ذلك كان حين كنتما فى الدنيا . وأما الآن ، فأنتما حيث أنتما باقيان . متجاوران ما بينكما غير قبضةِ يد .

دارَ الفلَكُ أم وقَف ، كرّت الدهور أم لم تكرّ ، أنتما متجاورانِ ، كل ما بينكما قبضةُ يد . قبضةُ يدٍ ما تزيد وما تنقص .

ودارَ الفلَك أم وقَف ، كرّت الدهور أم لم تكرّ ، أنتما هامدانِ ، ما يمكن أن تختلج فيكما خالِجة ، أو تُسمع لكما فى كَرَاكُما العميق نبْسة .

ألاَ فاضطجِعا إذَن ، واشكرا إن كان

ثمّةَ للشكر محل ، قبراً فى الفلاةِ جمعكما على لقاءٍ أبدىّ ، ومهّد لكما وعلى مَرِّ الحِقَب سبيل الصفاء .

أجَل ، لا خوفَ عليكما اليوم من فراقٍ أو جدل . فأمّا عن أوّلهما فالموتى ثاوون بلا حَرَاكٍ فى جوف الأرض . وأمّا عن الثانى فما من سببٍ للخُلْف عاد . كل ما حولكما فراغٌ فى فراغ . وما يطمع الراقد منكما ، إلا فى حفنةٍ من الثرى تضمُّ رفاته .

ناما إذَن كلٌّ فى حفرته ، والظلامُ بينكما مَشاع . ناما ، إنكما لَعلىَ وئام . ووئامٍ ما تنفكّان تعبران عنه بصمتكما الأبدىّ . ناما ، وذلك الصمتُ عليكما خير شاهد . إىِ والله الصمت ! وهل من حديثٍ سواه بينكما يدور ؟

آهٍ على الأيام التى كنتما فيها تتنازعان ! ذلك

النزاعَ الأخوىَّ وما كان أرفقَه! يشبُّ من الأمر على أهونه، ثم ينقضى وما يَمسُّ صميم ودكما فى شىء. كأنه فقاعةٌ تتلاشى فما تترك من أثر. أو سحابةُ صيفٍ إن لاحت لم تعكِّر الجو، ثم تمضى من دون أن تطيل اللُّبث.

ألاَ ليت هذه الأيامَ تعود، وتعودان للدنيا، وتعودان تختلفان! نعم، ليتكما وما تهمدان هذا الهمود! ليتكما وما تصمتان هذا الصمت! ليتكما وتعود تتنازعكما شئون الحياة، فما تتخليان عنها كما تخليتما.

ولكنكما وأسفا آثرتما أن تنفُضَا اليدين من كل شىء. وتوسلتما إلى ذلك بسباتٍ عميق. كأنكما تنشدان السلامَ فى نَسْيِه، والجِوارَ الدائم فى مثواه.

اطمئنا، كان لكما ما أردتماه. لقاءٌ أبدىٌّ

إنْ صحَّ فيه أن يقال لقاء . ووئامٌ إن صحَّ فيه أن يقال وئام .

٤١

عجبى يا « سعيد » ، عندما نزلتُ إلى قبرك لأستودعك ضيفك الجديد شقيقَك ، أن أراك مثلما كنتُ تركتُك منذ عام ، وما يزال ثوبك الحريرىُّ فوقَك يلتمع ، ومن تحته قوامُك المديد حافظٌ سمْتَه .

آهٍ على هذا الثوب الحرير ، الذى كان من حفْل الحياة كلَّ نصيبك ! لهْفى عليكَ لقد كنتَ تتأهب لزفافٍ وشيك ، أفتُرى إذَن هذا ثوبَ عرسك ، وذلك الترابَ عروسَك ؟ أوَلهذا ألبسوك الثوب حريريًّا ؟ لكيما يزفوك به إلى حفنةٍ من تراب ؟

تبًّا للحياة التى موَّهت عليك أملك !
وزيَّفتِ الثوبَ عليك ! ثم أعطتك إياه فلبسته
وأنت باسمٌ بسمة اليتيم لحِق به الضيم ، فتكلف
البشر ليستعين به على ازدراد غصته . حين يخرج
من المعمعة بالكِسرة اليابسة ، تاركاً الهدايا
للمرموقين .

إى والله إنى لأخالك فى كفنك تبْسم ! بل
إن التماع كفنك الحريرىّ لَمِن بعض ابتسامك .
هكذا ارتأيتك بعد عام فراق ! حين طالعنى من
خلال الظلام كفنُك الأبيضُ يلتمع ! كأنه ثنايا
راحت تتبسَّم ! ولكنْ قل لى أىُّ بسْمةٍ بربك
هذى ؟ وأىُّ عذابٍ مريرٍ ذلك الذى يشيع من
أضوائها الصفراء ؟ أترَى هى بسمةُ من غُلب
على أمره فامتثَل ؟ أم تُراها بسمةَ من راح
يسْخر من مصيره ؟

هيه يا شقيقىّ ! قضَى الله ولا رادَّ

لقضائه ، فناما إذَن معاً ، وعن كثبٍ منكما أبوكما يباركما . ناما فى ثوبيكما الحريريين . وشبابكما الموفور . المتصفِ من الحسْن بأبهاه . ومن الخلْق بأكمله .

والوداع فقؤادى يحدثنى بأن هذه آخر دمعة . وأننا عما قليلٍ ملتقون ، فما يبقَى مَن يبكيكما بَعدى ويذرف الدمع . أجَل ، فلقد كنتُ الأخير الذى بقىَ على المسرح ، بعد أن تهاوَى على خشبته جميعُ أبطال المأساة . وها هو ذا يتناهَى إلى سمعى وأنا ألقِى عباراتى الأخيرة ، صوتُ المُخرج يأمر بالتأهب لإنزال الستار .

إنْ هى إلا برهةٌ حتى تُطفأ الأنوار . ويخلو المسرحُ من أبطاله ، ليُعِدَّ نفسه لتمثيل مأساةٍ جديدة . يقوم بأدوارها أبطالٌ آخرون . ويشاهدها القوم فى ليلةٍ غير الليلة . واهاً للحياة

التى ما تفرغ من المآسى ! ولأرضها التى ما ترتوى من شرب الدموع .

٤٣

لهفى عليك يا « حلمى » ! لقد كنتُ أنظر إلى وجهك المسجَّى من تحت الغلالة الخضراء التى أسدلوها عليه عقب أن أسلمتَ الروح ، وكأنى به وردةٌ توارت خلف أوراقها لتتحاشى فضول الناظرين ، ممن تدفعهم حرقةُ الحزن إلى انتهاك حرمة الموتى بإدمان النظر إليهم .

وإنى لَمَا زلتُ أذكر كَم من مرةٍ كنتُ مع الناظرين أنظر ، إلى ذلك الوجه الوسيم ذى الشَّعر الذهبىِّ والوجنتين اللتين لم يكن قد غاض وردُهما بعد ، الموفورِ بأنضر الشباب ، الموسوم من الذكاء بأحدّه ، ومن النبل بأعرقه ، ثم

أرثى وفؤادى يتمزق ، لهذا الجمال الذى اختفى من من رياض الحسن ، قبل أن يتاح له أن يتبادل مع الزهور من لداته تحايا الصباح الذى جمعه وإياها على وارف الأيك ، ثم لم يمهله حتى يضوِّعَ مثلها تضوِّعُ نسمةَ العطر التى تنفَّسها فيه .

ولقد لبثتُ أتساءل ودموعى على خدى تفيض ، كيف أنه انطفأ فى عينيك ذلك الوميض فما عادتا تتألقان ؟ وخبا على شفتيك ذلك الافتراز فما عاد ثغرُك يبسم ؟ وخمدت من جبينك المتوقد جذوة الذكاء فنَسِى ؟

نعم يا شقيقى ، لقد لبثتُ أتساءل وأنا أحار أآسَى لك أم لقسوة الدهر أعجب ، غير أن نظرةً منى حانت إلى عينيك فسرعان ما واتانى الجواب . أجَل عينيك ، اللتين لم يكن قد أحكِم غمضهما فبدتا وكأنهما ساجيتان ، ولبثتا تطلان

عن زوايا الجفون وقد بعثتا بنظرةٍ واحدة ، واحدةٍ ما تتبدل ، فيها سخريةٌ وفيها نسيان ، وكأنها ما تنفكُّ تقول :

خَلِّ يا صاحِ الرثاءَ وخلِّ العجب ، فأن الحياة مهزلةٌ أيُّ مهزلة . وهذى نظرتى أعبِّر لك بها عن الحقيقة تعبيرَ صدْقٍ بعد أن ذقتُها وسبرتُ غورها بنفسى . لا تجهدْ فى التذكر نفسك وانْسَنى . إنى ميتٌ ، والموتُ نسيان . وصيحاتُك لن تبلغ أذنِى ولو أرسلتَها بحيث تبلغ عنان السماء .

أخى ! ما هذا بربك ؟ نعم ، إن الموت نسيان ، ولكنْ ماذا تعنِى ؟ أمَا من أملٍ وإن طال الانتظار ؟ كلاّ ، كلا بربك ! لا يكُنْ نسيانُك أبديّا ! أستحلفك ! أفِقْ ! أفِق ، ولو بعد حين ! وليكن نومُك إلى أمَد .

ثُم ، ثم تفيق ! نعم تفيقُ وتذكُرنى !

٤٣

تالله يا « حلمى » لقد كنتُ أظلمك ، حين كنتُ أنظر إلى وجهك الزاخر بالشباب واستبعد الموتَ عليه . وآخُذك ببشاشتك يومئذ وعنفوانك ، غير عالمٍ أنهما كلمعة البرق ما يلبثان وفى مثْل خَطْفِهِ أن ينطفئا . وأن وراءهما لَكآبةً وشيكة ، وضَعفاً أبديًّا كلاهما يفتت الأكباد .

آه يا شقيق ! لمَ غبطتُك على شىء لم يكن فيك ؟ أو كان فيك ولم يكن لك ؟ لمَ ؟ لمَ نظرتُ إليك بمِلْء عينىّ ، أنتَ يا من كنتَ والموتُ يسرِى خفيًّا فى عروقك سمُّه ، أرقَّ من أن تحتملهما ؟

لمَ ظننتُ بشبابك أكثر مما قد كتِب عليه أن يفْرغ عنده ؟ وبعمرك أكثر مما قُدِّر أن

يطول له ؟ وعددتُك ظلماً فى الأُولى ابتسم لهم الحظ ، وعلِم الله لم يكن فى الأشقياء من كان ينتظره مثْلُ شقائك ؟

آه ، لمَ أسأتُ الظن بعينيك حين راحتا تحدِّثانى بأنك قصير الأجل ؟ وبأنه مِن عمْر ذاك الزهر عمرُك ؟ فحَرمتُك من العطف الذى نحمله لكل راحلٍ موشكٍ على الرحيل . ولمْ أعاملك كما تُعامَل الزهورُ الرقيقة ، تلك التى هى عما قليلٍ ذاوية .

يا ليتنى كنتُ علمتُ أنك راحل ! إذَن لكنتُ قطفتُ لك أجمل ما فى بستان الحياة من زهر ، ونسَّقتُه لك طاقاتٍ ألقِى بها بين يديك . وجمعتُ لك أطيب ما فى أفنانه من فاكهة ، ووضعتُها فى سلالٍ تحملها إليك الغيد . ولكنتُ سخَّرتُ الطيورَ الغَرِدة لتغنى لك .

وأنداءَ الصباح لتضمّخ جسدك . ولَوقفتُ على بابك ليلَ نهار ، أسكب فى أذنيك نغمات نايى الحنون . حتى إذا ما ذهبتَ إلى حيث لا شيءَ تقرُّ به العيون ، لم تشتهِ نفسُك نعيماً فاتها وكان منها قابَ قوسين .

نعم ، فلا شيءَ والله حيث أنت الآن يُفرح قلبك . لا شيءَ واحسرتَا لا شيء ! فيا ليتك كنت قد أخذت نصيبك قبل أن ترحلَ ، يا ليتك !

نعم يا ليتك ! ويا ليتنى كنت علمت أنك راحل ! آه ، ولكنّ علْم ذلك وا أسفَا فاتنى . وحسبتُك مجدوداً حين كنتَ سيء الحظ . ومقيماً على حين أنك ضيف . فعاملتُك معاملة الأحياء الماكثين إلى أمد ، لا الموتى الذين شدُّوا رَحْلهم وتأهبوا للنوى . نعم ، لمْ أكرمك كما ينبغى أن يُكرم الضيف . الضيفُ الذى هو تاركنا عما قليل .

ولقد اقتسمتُ زادى معك ، كأنك كنتَ مثلى مقيماً ، أو كأنى كنتُ راحلاً مثلك . تبًّا لِى ! أوَ ما كان يجدر بِى أن أعطيك سَلفاً نصيبك من هذه الأيام التى كُتِب عليك أن لا تعيشها ؟ أوَلَم تكن أيامَك ، يا من مِتَّ والعمرُ فى مقتبَله ؟ أُمهلْتَ حتى تبلغها أم لم تُمهَل ؟ رُدَّتْ إليك أم من عمرك اقتضِبت ؟ أوَلم تكن بقية ذلك الحق الذى ما اقتضيتَ منه إلا أقلَّه ؟

واهاً لِى من جاهلٍ بمصيرك كنت ! واشدَّ أسفاه ! ماذا علىَ الأيامَ كان لو أنى علمْت ؟ فوضعتُ بين يديك كل ما ملكتْ يدِى . وقضَّيتُ أيامى كلها ملازماً ظلك . أنظر فى وجهك . وأملأ عينىّ يا تاركى منك . لا ابتغاءَ أن أطفىء منك شوقاً أجَلَّ من أن ينطفىء ، وإنما لأشغل بك فراغَ تلك الأيام التى كنتُ سأعيشها معك .

٤٤

إيه يا « حلمى » ! كأنى ببستانك الذى قضَيتَ ولمّا تقتطف أزهاره ، قد تركتَ على كل زهرةٍ فيه لمحةَ ضوءٍ من شوقك المعذَّب .

لهفى عليك ما كفاك أن تودِّعه وتذهب ، حتى أكرهَك الهوى على أن تودِّع رمقَك معه ! كأنك حتى حين تموت ، قُضِىَ عليك أن لا تجتمع على شملك . وأن ترحل بالبعض من روحك ، مخلِّفاً الذِّمَاء وراءك .

عزيزٌ عليك والله أن ترحل عن بستان قد استودعتَه أشواقَك ، تاركاً أزهاره دانيةً لكل عابرِ سبيل ، حراماً عليك وحدك .

يا ليته قد عَرَاهُ الجُفوفُ من بَعدك ، فما تشاهَدُ عليه هذه الأشواق تعيش بمنأىً عنك وتتعذب ! يا ليتهُ ، فتبلىَ معك أو تُرَدّ عليك !

أخى ! لمَ مِتَّ وعاشت أزهارُك ؟ لمَ لمْ يطوِها العدمُ الذى طواك ؟

لقد كنتُ أحسب حين دعاك الموتُ فلبيت ، أنه قد دعاك لراحةٍ أبدية . ونسيت ، نعم نسيتُ أشواقَك التى ما تودُّ أن تنطفىء . نسيت أنها هناك ملءُ حديقتك ، محلِّقةً فوق كل مَبْسم ، جاثيةً عند كل كَمٍّ ، تستحلف الأزهار أن تحنو عليها كما كانت فى حياتك تفعل ، والأزهارُ التى لم تعدْ وا أسفا تعرفها عنها لاهية .

لِمَن بَعدك هذى الزهور يا شقيق ينْشَق عبيرها ؟ وهذه الفواكه يرشف عصيرها المعسول ؟

من ذا الذى سواك سيجوب طرُقات حديقتك ، وبفيْىء أشجارها سيَستظل ؟ ويقفُ عند كل زهرةٍ مفترّة ، ويقتطف كل ثمرةٍ دانية .

عجَبى للخَمْون لمْ تذبلْ بَعدك ! عجبى لها

ما تزال تزدهر وتتضوّع !

لمَ لمْ يقِف الماءُ الذى ترتوى به غصةً فى حلقها ، أو يتحول الضوء الذى تمتصه حُرَقاً فى جسدها ؟

كيف لم تغلِق أبوابها فى أوجُه الزائرين ، وتحرِّمْ على أطيارها الشدو ؟

كيف لم تكفَّ براعمُها عن التفتح ، وعن التأرُّج زهراتُها المتفتحة ؟

كيف لم تَلبس على موتك الحِدادَ ، أنت يا من ألبستَها فى حياتك ثياب العرس ؟

كيف لم يحترق زهرها فى جوى أشواقك ، مؤْثراً أن يترك هذه الأشواق تحترق على ورَقاته وتضيء ؟

كيف لم تعفَّ عن أن تَسرق رمقَ ميِّت ، وتسخِّرْ نورَه فى زينتها ؟

ومضتْ بشوقكَ حتى بـــدت حسناء ،
واستمتعتْ به من دونكَ ومتّعَت الناظرين !
واتخذتْ من ضياءٍ منكَ استضاءت به ، ناراً بها
تصْليك !

عجَبي ! عجبي للخَـئون لمْ تزل تتألق !
وذبلتَ ولمْ تذبل معك !

٤٥

أتُرَى تدرك يا « حلمى » ، وأنت فى
القبر مغْمِضٌ والنسيانُ يُغرِق كراك ، أن
ثمةَ شقيقاً لك على الشاطىء الآخر من الحياة ،
قائماً يذْكرك ويصلّى لك ؟

أتُرى تدرِك ؟ فتبعث إليـه بالتحايا على
أجنحة روحك الطاهرة ، تهبطُ هبوط الألهـام
على فؤاده ، وتطمئنه على أن عروة الود لم تنفصم ،

وأن للذكْر بقيةً وإنِ المَزار شطّ ؟

أتُرى تدرِك ؟ بل تُرى تذكُر أنت ؟ شيئاً عن هذا الشقيق ؟ أو شيئاً عن هذا الإنسان ؟ مَن يكون وأين أو ماذا هو ؟ أم أنك لم تعدْ تذكر ، ذلك الذى كان بالأمس مِلْءَ فؤادك ؟ ولا أنت تدرك ، أنه من أجلك ما قام يصلّى ؟

كثيرةً ما كانت البسَماتُ التى أرسلْنا معا . والدموعُ التى أزجينا معا . وجميلةً وثمينةً أيضا . أفأذا كنتَ لم تعُد تَذكر ، تُراها إذَن ضاعت هباء ؟

إنّا نحن نمضى ، ولكنْ ، أمَا يبقَى لنا على الأقَل أن نذكر أننا كنا ؟ عزيزٌ على النفس والله أن تصبح محْوا . وأن تكدّ فى السهر على نفسها إلى أن تينع ، ثم تمضى فما تذكُر من أمرها شيئا .

إنّا لكنّا ارتبطنا من أصدق الود برباطٍ مقدس. رباطٍ لم يزل قلبي عليمَ الله موثّقاً به. يا شقيق، فحدّثني أنت عن قلبك، أما يزال به مرتبطا؟ بل قلْ لي، أما يزال لك قلبٌ يرتبط؟ بل أتذكرُ أنت شيئاً عن هذا الحديث؟ حديثِ ودّنا وحديث قلبك؟ أتذكرُ ما إذا كان أم لم يعد لك قلب؟ ثم هل تذكر أنك لا تذكر؟

أجبْ يا شقيق. أجب، إنِ استطاع من كان محْواً أن يجيب. أجب، ولو بإيماءةٍ من إيماءاتك الشاحبة التي تشير إليّ بها في الأحلام، عندما تجيئني في الكرى وما أندر ما تجيء! وتلبثُ وما أقصر ما تلبث! وتلُوح وليس أخفَى من غموضك! وتبدو وما أشد ما تريبني فيك! حتى لتُحسّ روحي ورغم أنها تحت سيطرة الكرى تكون، أن وهماً منك ذلك الذي

يُرى ، وخداعاً ذلك الذى راح بالحقيقة يلتبس .
وما تلبث أمام ذلك اللغز لغزِك ، أن تقع فى
مثل حيرة الطفل الذى ما له فيما أُريدَ عليه حيلة .
يخدعه ذووه فى الشىء فتأبى غريزته أن تصدّق .
ويرتاب فما يعرف كيف ولا لمَ ؟ حتى إذا
ما ازدادت به الحيرة فما درى أيظل على شكه
أم يؤمن ، انطوى على نفسه فى هزيمةٍ الله
للنفوس العاجزة من شدة وطأتها .

حدّثنى يا شقيق بربك . إن جئتنى فى الأحلام
وهماً كدأبك . وعليك من الزيف ما يريبنى
فيك . حدثنى وبإيماءةٍ من إيماءاتك الشاحبة .
وقلْ لى هل تذكُر ؟ ودّنا القديم على الأرض ؟

إى والله حدثنى . لكيما أطمئن . أطمئن
عليك أنت . على أنه لم تزل لك ذاكرة . ولم
يزل لك وجود . وأنك لم تصبح عدما . وأن

ثمةَ أملاً فى اجتماع الشتيتين . ولو بعد حين .

حدثْنى . حدثْنى مُومِئا . حدثْنى وإن كنتُ فى قولك سأرتاب حتى ولو بالإيجاب أومأت . وكيف لا أرتاب وأنا الذى أشكُّ حين تحضر فى وجودك ؟ وأراك والباطلُ يكتنفك ؟ والعدمُ يدمغك بطابعه ؟

كيفَ ، كيف يا رهْنَ العدم ؟ كيف أصدِّق أنه لم يزل لك ظلٌّ يتحرك ؟ أقَدْ غرنى منك أنك تجيئُنى فى الرؤى ؟ وأنك تُومىء إذ تجىء وتتحدث ؟ إذَن فإنْ هى إلا أشواق شبَّهتْك إلىّ . واستعارت من ذاكرتى ما اختزن فيها من أطيافك الحبيبة ، ثم صاغت لك منها صوراً تتحرك . لها اللهُ تُمَوِّهك علىّ ! نعم تموهك ، وإلا لَمَا أتيتنى هزيلاً هُزالَ الطيف عَفَا ، فنسج عليه البعادُ ضبابَه . ولَمَا كساك الباطلُ بقناعه الزائف . ذلك الذى يكسو به

الظلالَ إذ تسجو ، أو الصورَ إذا تنعكس .

لا ، لا . إنك مَحْواً أصبحْت . قلبي يحدثني بذلك . بأنك أصبحتَ نسياناً . نسياناً في نسيان . نسياناً وإلى الأبد نسيانا . كالأمس كان وهو بَعدُ لا يكون . أو كزهرة الربيع يطلع الخريفُ عليها وهي عدم .

ربِّ قدِّرْ عليّ أن أكون مخطئاً فيما ظننت . وأن يكون النسيان إلى حين . والذكْرُ إلى بعْث . وأن يكون لورْد الربيع الذاوى ربيعٌ في الفردوس آخَر . وأن يكون ذلك الفردوس ملتقىَ الأحباب أجمعين . وأيكُه مغْناهم بعد حين .

والسلام عليك يا أخي . السلام عليك وعلى مَن نام معك . نوماً ما له في حياتنا من مفيق . تغطُّون فيه غطيطاً ما ينتهي . السلام عليكم ، ذَرَّفَ الموجَعُ آخرَ دمعة . وإلى اللقاء

إن شاء الله فى يومٍ وشيك. تجْمعنا الأجداثُ فيه على كرَى ما نعِى فيه عن لقائنا شيئا. ثم نصحو على نفخة الله تعالى فى الصُّور. فتنْفضنا عنها المقابرُ إلى النور من جديد. وأفْتح عينىّ على طلعة وجهك الحبيب. وطلَعات الثاوين معى ومعك، رُدَّ عليهم وعليك ما أكلتْ منكم القبور. يومَ يَفتح كلٌّ منا ذراعيه لأخيه. ثم نتعانق بعد فراقٍ طويل. حتى إذا ما شفيْنا لوعةً بالفؤاد، وانتهينا إلى الديّان كلٌّ يؤدى إليه حسابه، فربَتْ حسناتُنا على السيئات وخرجنا من لدُنْه بِيضَ الوجوه، مضينا إلى الفردوس لنواصل فيه معاً حياةً جديدة. خاليةً من شوائب الأحزان وأوضار الكدر. لا تَعرف نوامِيسها الفراق وآلامه.

الوداع يا موتاى فلن أبكيكم للناس بَعد. لقد لاح لِى من خلال القبور مُضْطَجَعٌ هادىء.

وطرَق أذنىَّ نداءٌ شبيهٌ بذلك الذى قد كان أذنيكم طرَق . وإنى لأصبو إلى تلبية هذه الدعوة . وإلى رقدةٍ فى ذلك المضطجَع مريحة . فلأتأهب إذَن لهذا الرحيل . ولأبدأْ بأن أؤدى ما لله علىّ من دَيْن . لأصلِّ له وأسبِّحْ به سبحانه . ولأستغفرْه من ذنوبٍ أسلفْت . الوداع يا موتاى ! الوداع جميعا . وإلى اللقاء وشيكاً فى الرمس . ثم فى الفردوس مِن بَعد .

٤٦

إلـهى ، ذلك الفجرُ من سنَى محياكَ فهأنذا أقُومه .

إلـهى ، لكى أبصر وجهك .

إنه هو محرابكَ وعليه من قِدَمٍ حلَّت

بركتك .

تتفتح إذ يطلع أبوابُ السماء فما يبقَى من حجابٍ دونك .

وبهَدْيه يفيق الغافلُ من عبادك على نور مِشْكاتك .

وفى حرَمه تأتيك الوفود سُجَّداً تسألك المغفرة .

إلـهى ، وإنّ عليه منك لَسيماءَ الورَع .
كأنى بضبابه الرقيق بخورٌ يُحرَق فى معْبد .
وما تلك السكينة التى ترفرف على نوره ،
فأحسبه معها وكأنه يغضُّ الطرْف ،
إلا مَخَايِل تُقَى ،
وأمارات من يحمل بين جنبيه نفساً مطمئنّة ،
لمْ تعكرها غيومُ الأحزان ،
أو تزعجها وخَزاتُ الضمير .

نفساً من رِبْقة الشهوات تحررت .
فما هى قطُّ تتطلع ،
وفى عينيها ذلك البريق الخاطف ،
الذى يَشْهَر فى سيوفه الاثم .

إنى لأعوذ بالله من وهَج الشمس !
تلك الغانيةِ الخليعة ،
المكشوفةِ النقاب لكل عين ،
وفى لحْظها من النزَوات سيوفٌ مسلولة .
تسدِّد الخيط من الشعاع يمْرق كالسهم ،
وفى غير وجَلٍ واستحياء ،
فيبْذرُ اللحظَ المفسِد ،
والافترارَ المميت .

كما أننى أعوذ به من هذا الليل ،

ذلك الشيطان المقنّع ،
الذى يخفى فى تحجّبه أشرة النزوات ،
وأخبث الطوايا ،
ويعيش كما تعيش اللصوص فى الظلام ،
تنتهز الفرصة السانحة ،
لترتكب الكبائر فى صمت .

وأمّا أنت أيها الفجر فقدّيس .
لا أنت بالخبيث ولا بالمتبذّل .
وعليك من الألوهة مُسُوحٌ خفية .
وإنى لألبس الآن من مسوحك أثواب الورع .
وبالصلاة أتجه إليك يا ألله .

إلهى ، هأنذا أسجد لوجهك الكريم وأسبّح

بالحِسَان من أسمائك .

يا أيها النيام استيقظوا فجراً واعبدوا ربكم .
أنتم يا من تقومون وقت الشيطان وتنامون وقت الله ،

الذى تتفتح فيه مغاليق السماء ،
فتروْن منها بقلوبكم مِشْكاته ،
تحمل فى ضيائها آيةَ وجوده .

لا تسألونى على ما أقول برهانا .
إذا لم يكن حَسْبكم أنى شعرْت ،
فجرِّبوا لتشعروا معى .
إنّ فؤادى ألهمنى وكفَى .

إنه لَيشعر فى الفجر ،
بتقرُّبٍ خفىٍّ إليه سبحانه .

والقلبُ لا يُلهَم الشيء عبثا .
ذلك أن الملهِم صوتٌ من الله .

إن الشِّعر ليفعل بالقلب الأفاعيل .
والنغمَ ليلفُّه فى تلافيف سحْره .
والعقلُ يحار فى كل ذلك تأويلا .
ولكنّ القلب يأتيه السرُّ منقادا .
فيَلمسُ الجمالَ فى أثناء النشوة ،
مثلما تتلامس الأطياف فى صمت .
لمسةً عبقريةً لا تقع تحت سلطان الحواس ،
ولكنه يحسها عن كثَب .
على حين يقف العقلُ مشدوهاً يتفرج ،
وهو يفْغَر فى تبلُّدٍ فاه .
ولا يدرى ماذا أحَسّ الفؤادُ وكيف ؟

وبَعدُ فهذا العقل الذى يحار فى تعليل السحر .

أمَا يحار فى حل لغز الله ؟

أنتم يا من تتجاهلون قِيَمَ القلوب !
افتحوا قلوبكم لتحسُّوا وجود الرب ،
كما تفتحونها لتحسوا الشِّعر ،
أو لتحسوا النغم .
إنها لَمفتاح السر ، وإنّ فيها لَمَجْمَعه .
إن شئتم لها كشفتْه لكم ،
وإن أبيتم عليها حجبتْه عنكم .

إن العقل لَغِرٌّ أعمى .
يفرح باللعْبة الصبيانية ، ويقلِّبها بين يديه فى بلاهة .
ويفُوته اللغزُ العظيم فما يحفل بالأمر .
صنَع الطائرةَ هذه الأعجوبة التى يكفى لإظهار

بساطتها أنها تُرَى وتُلمس ،
فظن أنه أتى بالعجَب .
وقاد الجيوش فما زاد على أنه سخَّر بعض عضلاتٍ من لحمٍ ودم ،
فحسِب أنه بالمعجزات أتى .
وفاتَه أن من أوتِىَ سرَّ النغم ،
أو أدرك مَواطن السحْر ،
أو اهتدى إلى طريق الله ،
هو الذى حقًّا أتى بالعجَب .
فاته أن العجب هو ما لا يُسمَع أو يُرى ،
وإنْ تقمَّص شيئاً يقع تحت السمع والبصر .
وأنه هو ما لا بالعقل يُدرَك ، وبالقلب يُحَس .

إننى أنا مَن دَرَجْتُ على أن أهْصِر قلبى ،
كلما جلستُ فى الأشواق أكتب ،

فأخضّبُ الصفحاتِ أمامي بدمائه المهراقة ،
وإذا تفُوح من دِفْئها رائحةُ الصدق ،
تقع على القلوب الوقعَ الحسَن .
وأسكبُ الدموع أنهاراً بين السطور ،
تحْمل فيها ذوْبَ نفسٍ بشرية ،
يَلمس جرحُها جرْحَ كلِّ إنسان —
أنْقل اليوم إيمانى ،
إلهاماً من نورٍ يطفو فوق الورق ،
كما تطفو الأحلامُ على المُقَلِ المكحولة بالنعاس .
تُرَى وليست تُرَى .

فإليكم يا من تأخذون بالصدق فى الحديث ،
حديثَ صدقٍ يحمل فى لهجته برهانه :
لقد أحسنتُ الاستماع إلى قلبى فألهمنى الذى قلت .

فعليكم إذا ما أردتم البرهان ،
أن ترهفوا السمع إلى قلوبكم مثلى .
ولَسوف تلهمكم مثلما ألهِمْت .
لأن الإلهام حقٌّ ، والحقُّ واحد .

قُوموا فجرَكم مرة ، وكلُّكم اتجاهٌ إلى الله ،
تؤمنوا .
تؤمنوا بأن هذا الفجر حرَمه .
وأن السماوات فيه تَفتح أبوابها ،
وتُعبِّد الطريق أمام من شاء أن يَصِل .

قُوموه مرة ، يأتِكم من فوره البرهان .
ولَئِنْ فعلتم ، لَتأخُذُنَّها عنى كلمة :
اصحوا فجركم التقىّ . وناموا ليلكم الداعر .

ذَوِّبْ جمالَ الوجود فى كأس فؤادك ، واسكبْه على الكون نغماتٍ ذاتَ عبيرٍ وألوان ، تُرِذُّ عليه إرْذاذَ الندَى جادَ به فى الفجر ضبابٌ رقيق .

ولْتكُنْ رقراقةً كمياه الغدير تنساب بين شُطآنه على مهَل .

وضيئةً كالشمس تبعث الأنوار من ثغر الصباح المفْتَرّ .

ألاّقةً كقطرة الندَى تلمع فى شعاع فجرها الذهبى .

جمّةَ الإشعاع كالماسة فى الظلام تألقت .

مدلّلةً كحبة اللؤلؤ المترجرجة فى كفٍّ حسناء .

نضيرةً كالعشْب النامى على ضفاف النهر

الميمون .

بهيجةً كألوان الزهور القُزَحيَّة فى اليوم الصحْو .

طليقةً كظبيـة الوادى رَتَعتْ فى المرعَى الخصيب .

مشبوبةً كأغنيـة البلبل ناجَى زهرتَه من الأيك .

حالمةً كأشعة القمر امتدت على الحقل المُخْضَرّ .

حنوناً كهمَسات النسيم فى أذُن الفَنَنِ المُورِق .

مرحةً كسقسقةِ العصفور يحيِّى عناقيـد الكرْم .

باكيـةً كالغمامة أدَرَّتْ ماءها المكنونَ ريحٌ صَرْصَر .

شاكيةً كهديل الحمام يَرسم على الرمل ما يشْبه الظل.

وهكذا ترسلُ أنغامك بلسماً ينزل على القلوب الكليمة نزول صيِّب الأمطار على النبت الظامىء.

ولا تكُ عنيفةً كالرعد يُلهِب بسياطه ظهورَ السحاب فتحمرّ.

ولا جبارةً كالعاصفة تهزُّ مغاليق السماء فى اليوم المطِير.

ولا صمّاءَ كالقفْر لا تجِد الجذورُ سبيلاً إلى صخوره الخرساء.

ذلك أن نور الله لا يشرق فى قلوب الطغاة.

وأنّ رحمته تعالى لا تهبط على من نضب مِن الرحمة معينُهم.

ولأنه تعالى لا يُرِى وجهَه الجميلَ مَن لا يتذوق الجمال.

٤٨

أيها الشاعر لمَ تتركُ أحزانك تهجع ؟ هيا وابعثْها من ضريح فؤادك .

ابعثْها تبعثْ معها الليالى ، والهامدينَ طىَّ القبورِ ممن أحببْت .

وابعثْهم تشركْهم وإياك فى أيامك الباقية ، وتلمسْ على رغم الفراق دبيبَ خطاهم وهى تتنقَّل عن كثب منك . وكأنهم حينئذ ما كَوَوْا بالحزن قلبك ، إلا ليوثِّقوا ما بينهم وبينك من ألفة ، فيجمعَ بينكم الحبُّ على مَرِّ الدهور .

ابعثْ أحزانك ! إن تلك البقايا المقدسةَ لَمِن ذخائر القلب ، فعارٌ عليك أن تتركها هَمَلاً فى كهوف نفسك المظلمة .

أَطلقْها كما تطْلق البخور يذيع فى كل منتجَع .

ضمِّخْ بعطرها أغانيك حتى تنتشرَ فى كل قلب .

لوِّنْ بظلها أخْيلتك فتكتحلَ بها كلُّ عين .

نَدِّ بذوْبها أشعارك ليسيلَ بها كلُّ مَدْمع .

وهكذا تنوِّهُ بها وتحفظها من عوادى البِلَى ، ثم تخلِّدها من بَعدك بخلودك .

وإنّ من البِرِّ بحزنك أن تفعل . فما تعيشُ أنت ويَبلَى هو . أو يبعثُك الخلودُ ويُترك نَسْيا .

٤٩

ما إنْ لاعبتُ مزمارى واهتاجت به مَجَامِرُ العزف ، حتى حملتْنى نغماتُه على أجنحتها إلى مَواطن ماضٍ بعيد ، اختفت أيامه فى كهوفها التى تنْقبها فى أطلال الزمن ، آخذةً معها لحظاتِ

السرور التى جاءتنا بها فى ركابها ، كما يجىء النهرُ الميمون بالفيْض إلى أنجاع وادٍ ذى زرْع .

ولقد طفقتْ حوادثه تتتابع على عينىّ لامعةً فوق موجات النغم ، ثم ما تلبث أن تنحدر معه ويلفّها البعد فى طيّاته ، وكأنها سفائنُ موكب يمر ، أو سرْب طيرٍ جميلٍ أخذتُ أستعرضه فى الغروب وهو ماضٍ إلى وُكُناته .

فلم أتمالك أن أمسكتُ عن العزف وقد حدّرتْ عيناى دمعاتٍ عزيزة ، حيّيتُ بها أرواحَ تلك الأيام والليالى ، وسقيتُ بقطرها أجداثها العطشة .

وعندما حانت منى إلى مزمارى التفاتة ، وألفيتُ السكون يرفرف عميقاً بين ثقوبه ، جعلتُ أنظر إليه وكأنى أطالع فى صمته الحزين سطوراً من أيامى الخوالى ، التى غيّبتْ فى جوفها

أصواتَ مَن تنغَّموا فيها وكانوا بهجتها ، ثم ثوتْ وإياهم جثثاً هامدة .

٥٥

واحسرتاه على تلك الليالى التى عشتُها وسراجُ الأمل يضىء جوانب قلبى ، فأرى الحياة وقد انعكستْ أضواؤه عليها جميلة .

أيامَ كنتُ أطرب للزهرة الحسناء ترتعش على غصنها الميادَ .

ويهزنى سجع الطيور ينساب فى الأذن انسياب الجدول .

وتُسعدنى لمَساتُ النسيم تمرُّ على الخدود مَرَّ القبل .

ويُشرق وجهى للافتراز البديع ، يتفجر من بين الشفاه كأنه الفلَق . حتى إذا ما هرب منه

إلى فؤادى قبَس ، فأصابَ له فى شِغَافِه مخبأً أو فى حبَّته ، ومضى يضىء علىّ من نوره ويؤانس ، أطربُ ويطير صوابى من الفرح .

ويخفق قلبى لنُجْل العيون ، تتنزّى مُقْلهنّ فى المحاجر كالزئبق . وكلما بَعثتْ حولها الأضواءَ من غير حساب ، فرقَ منها إلى قلبى شعاعٌ ونفذ إلى الصميم ، يُجنُّ جنونى وأتأوّه .

وا أسفَا على هذه الأيام التى كم حبَّبتْ إلى نفسى الحياة ! والتى لم أعدْ أراها مذ فقدتُ العين التى كانت تَرَى ! والقلبَ الذى كان يخفق !

أتُرَى الليالىَ والأيام لا تذهب ، وإنما تَذهب العيونُ التى تراها ، والقلوب التى تخفق لها ؟

نعم . أفما هناك ليلٌ يُعقِب النهارَ لم يزل ، ويكحِّل بمرْوده العيونَ الناعسة ؟ ونهارٌ يعقب الليلَ يوقظها فرِحةً على نوره ؟

أفما يطلع القمر من جانب الأفق الغربيّ كعهده ، وللعاشقين يتبسّم ؟

أفما تَنثر الشمسُ فى الأصيل على المروج الذهب ، وتصبغ فى الغروب السحابَ بلون الأرجوان ؟

أفما تنساب الجداول بين الحشائش غافية ، وكأنها شَربتْ من كأسٍ سحريٍّ ما هى منه تفيق ؟

أفما تنبسط البحيراتُ وفوق شطآنها الصفصافُ يدلّى فروعَه ، وعلى سطحها الزنابقُ تسبح حالمة ؟

أفما تشقُّ الغدرانُ طريقَها فى الوديان ملتوية ، وعليها من الطير أسرابٌ تصفق بالجناح ؟

أفما تَبْسُق الغاباتُ تُشارفُ أشجارُها السحُب ، وفى أنحائها تنتشر الأدغالُ مهيّئةً للاّجئين الليلَ فى وَضَح النهار ؟

أفما يُثقِّل النَّدى بلؤلؤه الأزهارَ فتنثنى تحت مكنونِه ، ويُخضِّل المروجَ بجُمانه المنثور ؟

أفما تَضُمُّ الخمائلُ فى أكنافها العاشقين ، وتَخْصِف عليهم من ورقاتها ما يدبِّر لهم عزلةً هادئة .

أفما هناك عيونٌ نُجْلٌ لم تزَل ، تسدِّد النظراتِ كالسهام تخترق القلوب ؟ وشفاهٌ حلوة الافترار ، يكاد تبسُّمها يضىء وإن لم تلمسه نار ؟

نعم ، كل شىء ما يزال على عهده ، ولكننا نحن الذين وا أسفَا نتبدل . يشرق فينا الأملُ فأذا كل شىء على نوره جميل ، ويغرب فنرى الشمس فى رائعة النهار كسيفة .

ما من ليالٍ هناك تذهب ، وإنما عيونٌ يخبو ضوءُها . إننا نحْن مَن نبلىَ ، أو

تَبلى فرحتنا .

٥١

الآن وقد ودعتنى سفينةُ الأمل إلى حيث تذهب إلى شواطئها المجهولة ، بعد أن قدِمتْ تسعدنى إلى حينٍ فى هذه الحياة وتمضى .

والآن وأنا أقف وحدى على شاطىء القنوط ، أرقب السفينة الغاربة وهى تشقُّ طريقها وسط العباب ، وعليها من المشاعل والأعلام زينةٌ تبهر الأبصار ، فأناديها تعلقاً بأهدابها ، فما تجيبُ ويعود ندائى أدراجَ الصدى .

والآن وهى تبتعد فى طريقها يدفعها التيار ، فتتضاءل فوقها الأنوارُ شيئاً فشيئاً ويتضاءل معها نورُ فؤادى ، وكأنه لم يكن سوى خيطٍ من شعاعٍ شُدَّ إلى ضوئها يجتذبه معه أيّان اتّجه —

أسائل الشاطئَ والأمواجَ إلى أين تذهب ،
فيجيبني عنهما الماضي من خلال همهمة الصمت ،
بأن يقصَّ عليَّ حديثَ مُقامها السعيد قبل أن
تُقتلع ، فيُهيج في القلب لوعاتٍ كانت مستكنَّة ،
وكأني به وقد أنشأ يبكي يقول : يا ليتني ما كنتُ
سألتُ ولا كان الماضي أجاب !

٥٢

دعْ وخزاتِ ضميرك تذوب في دموع الندم ،
ثم اغسلْ في نبْعها الصافي أوضارَ آثامك .

واجمعْ منها لجَّةً تسبحُ فيها إلى ربك ،
وامثُلْ نقيًّا بين يديه وعليك من بقايا الدمع
شاهدُ عدْلٍ على توبتك .

واركعْ أمام عرشه المقدَّسِ سبحانه ، وقلْ
ربِّ هأنذا تطهَّرتُ من أوزاري ، وتحررتُ

من ربقة الأحزان التى كبّلتنى بها فى هذه الحياة الشقية . حرّرتنى دموعى .

ثم سلْهُ تعالى أن يدفع بك فى موكب ضيائه الفاخر ، ويدمج روحك فى روحه السّرمَد .

وعندئذ حطِّمْ نايك الذى صَنعتَ من اليراع المثقّب ، واجعلْ نفْخك فى نايه السحرىّ الذى ما يعتوره نشَاز .

وانخرطْ فى موسيقَ كونه الأزلية ، واسبحْ فى نغمها الفرد نغمةً دائمة الترديد على الأبد .

وعِشْ وإلى ما لا نهايةَ فى نشوةٍ روحيةٍ طاغية ، ما لك منها من مفِيق .

٥٣

لقد طوّقتْ جبينى هالةٌ من نور ، حين فُتحتْ أبواب السماء وطرَق أذنىّ نداؤك . وإذا

بملاكٍ من لدنك يدنو مني وبيده كأسٌ فيها شراب ، ثم يومىء إليّ أنْ أشرب .

وإذ ألفيتُني أمام سحرٍ لا عهد لِي به ، لم أتردد في أن أطيع . غير أني ما كدتُ أرفع الكأس إلى فمي ، حتى ارتعشتُ تقززاً من مرارة طعمها ، وهممتُ بأن أنحّيها عنه . ولكنّ الملاك أومأ إليّ قائلاً اشربْ فشربتُ . وخُيِّل لِي أنه لم يكن في طاقتي إلا أن أذعن .

وما إن ألقيتُ بالكأس فارغة ، حتى شعرتُ بأن شرابها وقف غصةً في حلقي . وانتابني على الفور حمّى عنيفةٌ هزتني من الرأس إلى القدم ، وأحسستُ معها بأنفاسي تختنق .

غير أن هذه الحمى لم تلبث أن ضاعت في غمْر نشوةٍ مقدسة ، أنستْني ما كابدتُه ، وما خيِّل لِي إذ ذاك أنني ما أزال أكابده . وإذا بِي

وأنا فى غمرها ، أرى كأن أبواباً صوب السماء تُفتح عن روضٍ بعيد لم تقع عيناى على مثله ، وإذا تطالعنى منه وجوهٌ عزيزة عرفتُها لأول وهلة ، وأنشأ أصحابها يلوّحون لى بطاقاتٍ من الزهر الجميل وقد علَت وجوههم بسمةٌ مشرقة . فغمرتنى من فورى فرحةٌ طاغية ، أخذتْ تلحُّ بى أن أذهب إليهم وأعجّل .

وبعد لحظاتٍ لا أستطيع أن أقيسها ، شعرتُ فجأةً كأن طائراً فى قلبى قد فُكّ عقالُه ، ومضى يرفرف حائراً بين الجوانح ، وفى كل مرةٍ يحاول أن يدنوَ من موضع الفم . وفى ذات جولةٍ من جولاته ، أحسستُ ولست أدرى كيف ، بشفتىّ تلفظان شيئاً ، كان أنا .

وللتوّ انبثقَ نورٌ قوىٌّ من مكانٍ مجهول ، أخذتُ أتسلق خيوطه عَبْر السماوات فى سرعةٍ

سحرية . وفى مثل لمح البرق ، رأيتنى شارفتُ الروض الذى كنتُ رأيتُ أبوابه تُفتَح ، وكان هو الفردوس .

وسرعان حين بلغتُه ، ما تلقفتْنى أيدٍ عرفتُ فيها أيدى من كانوا يلوّحون لى منه ، ومن هم رفاقى الذين سبقونى إلى الحياة الآخرة ، ثم مضوا بى إلى خمائله وجعلوا يقدمون لى الزهر والفاكهة .

وما إن حانت منى إلى كوكب الأرض نظرة ، حتى ألفيتُه بقعةً سوداءَ تنبعث منها روائحُ كريهة ، وصرخاتُ آلامٍ مدوّية ، حتى لقد خلتُه الجحيمَ بادىءَ بدْء . فما عتّمتُ أن تذكرتُ أيام اليتْم والشقاء التى قضيتها فيه ، وحمدتُ الله على أنها انقضت .

٥٤

الآن أختتم حياتى ، وأردُّ الشوقَ إلى شِفافه والدمعَ إلى مَحاجره . فوداعاً أيتها الدنيا وداعاً إلى الأبد ، وشكراً على أيامى الشقية .

لقد هَزت مِحَنُها إلى السطح كنوزى ، كما تقلب العواصفُ اليمَّ ظَهراً لبطن ، وتأتى باللآلىء من أغوار اللُّجج ، تقذف بها الأمواجُ إلى الشاطىء .

لو كانت حياتى سالت ناعمةً كالغدير ، أكان ثمةَ عواصفُ تقلّبنى وتستخرج المخبّأ من كنوزى ؟

أكنتُ أجدُ عندئذ ما أقدّمه هديةً للأجيال ، يومَ أن أبرح هذه الدارَ إلى ديار نائية ، وأؤدى ديْناً علىّ إلى الوجود الذى لفظنى إليه ، وأرانى النور من بَعد الظلام ؟

أوَما كنت أموت وأنا أجهل موضع ثروتى منى ، وأدفنها حين أُدفَن معى فى التراب ؟

مَن ذا الذى ينفض الدمعَ من كهوف المحاجر ، يترجرج كاللآلىء فوق المقَل ، ثم يسيل على الخدود كالجداول ؟ أليس الألم ؟

مَن ذا الذى يبعث من حدائق الفؤاد الزفراتِ المشبوبة ، دافئةً كأنفاس الربيع ، حاملةً من رُباها النائية عبير زهرها البرّى ، فتنعش إذ تسرِى مَوَاتَ النفوس ، وتنفض الأشواق من سجوف الرقاد ؟ أليس الألم ؟

مَن ذا الذى يرسل النغم المبحوح من نفس الشاعر ، يَلمس ببحّته القلوب الجريحة ، فيطلقها بالبثّ الحنون ، ويسرّح معه آلامها الدفينة ؟ أليس الألم ؟

من ذا الذى يوقد النار فى مَجامر أشواقه ،

فيضوّعُها فى الآفاق بخوراً ذا عبَق ، ينْشق المتيمُ فيه عطوراً مَنْدَليَّة ، كأنها من مَواطن الحبيب البعيد هبَّت ، فتعطفُ الخيالَ منه على الخيال ، وإذا الشتيت قريبٌ من الشتيت ؟ أليس الألم ؟

من ذا الذى يعلّم المرء أن يتذوق حلاوةَ اليوم السعيد إذا حلّ ، ويحرصَ وهو يرشفها على أن لا تمرَّ فى غفلةٍ منه ، فيعمَى عن وجودها وهى موجودة ، ويفقدُها وهى بين يديه ؟ أليس مرور اليوم الشقىّ قبله ؟

من ذا الذى يدَعُه ينْفض ذكرياته من الرمْس ، باعثاً معها شخوصَها وأماكنها القديمة من مهاوى العدم ، مُهيباً بحاضره الابن أن يبرَّ بماضيه الأب ، فيَسِم بالوفاء الجميل تصرفاته ، وينقش طابَعاً من الخلود على أيامه

الفانية ؟ أليس حاضراً شقيًّا تبرَّم به ، فدعته رغبةُ الهرب منه إلى أن يعود بروحه إلى أحضان عهودٍ غالية ؟

مَن ذا الذى يجعله يضيق بدنياه ، ذلك العالَم الصغير ، ويفزعُ إلى عالَمه الكبير عالَم نفسِه ، فيجوبُ فى أصقاعه المترامية ، مكتشفاً أينما سار كنوزَه وطلاسمه ؟ أليس قنوطاً يطفىء فى عينيه بهجةَ الحياة ، فيحملُه على أن يهجرها ويلوذ بنفسه حيث يلقىَ فى حناياها مستقَرًّا هادئا ؟

لو أنه كان كسواه من الناس سعيدا ، أكان ثمة ما يخرجه من المعمعة ، ويمهد بينه وبين نفسه سبيل اللقاء ، فيتعرفُ إلى أقرب الأشياء إليه ، ويعرف عن طريقها ما بعُد ؟

ثم من ذا الذى يجعله لا يحفل بمظاهر الحياة

الكاذبة ، ويحدو به إلى أن ينْفذ ببصيرته إلى ما وراء الكون ليتلمّس الروحَ السَّرْمد ؟ أليس مللاً يبغّض إليه الحياة ، ويفضى به إلى محاولة التحرر من قيودها ؟

وبعدُ ألم أكن ذلك الرجل ؟ ألستُ أعيش الآن فى ماضىّ الحبيب نابذاً حاضرى ؟ ألم أهجر دنياى الشقية وأسكنْ إلى نفسى وعليها أنطوِ ؟ ألستُ مَن طوّح بروحه عبْر السماواتِ إلى الغيب ، ومِن قيود الجسد تحرّر أو كاد ؟

طوبَى لِمَن صهر قلوبَهم الألم ! إنهم وحدَهم من يعيشون وقد وضعوا إصبعهم على السر ، ثم يموتون وقد أدّوْا ديْنهم للحياة .

يا معاصرىّ الكرامَ ، مَن قَرأ منهم ومن سوف يَقرأ ! ويا أبناء الأجيال على كرّ الدهور من بَعدهم ! هاكم كنوزى فخذوها من

يد الشقاء كنوزاً من جواهرَ عجَب. فيها لآلئُ كالدمع رجراجة. وفيها أصدافٌ كالبسمات ملتمعة. وثَمَّ يواقيتُ أيضاً فى لون الدم. وماساتٌ تَبعث الأشواقَ أضواءً تتوهج.

نخذوها جواهرَ، أو نخذوها زهوراً وكمثل العهد فى الزهر مفترّةَ المباسم مُخَضَّلةً من نداها بدموع. تَجمع النقيضين على ورقاتها المرتعشة، وتمزج فى كاساتها السعادة بالألم.

٥٥

عندما يدُقُّ ناقوسُ القضاء فى جوانب كهفك الموحش فيبدِّدُ صمته.

وعندما تتنبه فأذا ملاكُ الموت جاثمٌ فوق صدرك آخذٌ بخناقك.

وعندما تعزُّ عليك الحياةُ فتتزاحمُ الذكرياتُ

فى ساعة الوداع فوق جفونك ، ساكبةً على أهدابها المتراخية أكواباً من نورِ أعوامٍ خلَت ، فتراها وأنت عن الوعْى غائب ، كأحاديثَ نسَبوها إلى عالَمٍ خرافى ، أو كأمواهِ دنيا شُبِّهتْ لك .

وإذ تنْكبُّ عليها وأنت ذاهلٌ ، ترشفها فى نهَم الثمِل يحتسى الكأس التى لم يعدْ يَطعمُ مذاقها — اشربْ إذَن رَوِيتَ أم لم ترتوِ ، فذاك بالنور آخرُ عهدك .

ولتكنْ كأسُك الأخيرةُ هذى ملأى بكل ما كنتَ شربْت ، ولحظةُ الختام العمرَ كلَّه وقد احتشَد .

وفارِقْ دنياك إذَن وكأن الحياةَ على تنوُّع ما فيها ليست إلا كأساً واحدة ، وكأن الأعوامَ الطويلة ليست غيرَ طرفة عين .

وعندئذ لا يحزنك أنْ كنتَ فيها قليلَ الزاد قصير السفر . إنما الزاد والأعوام خدعةُ نفهمها عندما تحين ساعتنا . إنْ أُولاهما فى النهاية إلا جرعةٌ واحدة ، وأخراهما إلا لحظةٌ ليس غير . جرعةُ الموت ولحْظته . نشرب الجرعة فى اللحظة ، ثم ننسَى عنها كلَّ شىء . ويا ليت أنّا فى مذاقها ما نرتاب ! تلك هى الحياة طالت أم قصُرت .

٥٦

الأيام ! التى قُدِّر لِى أن أحياها ، شارفَت النهاية .

هذا أُرْغُنى تتحشرج النغماتُ فيه ، ثم ترسب فى قاعه وكأنها غصّة .

والأكاليل ، التى نظمتْها لِى أيدى العذارى ،

وعقدْنها فوق مَفْرِقى فى الليالى المقمرة ، ذوَتْ زهراتُها وتَهاوت .

فإليكم يا من أهديتمونى الزهورَ الحِسَان ، ولِتنعمى أصغيتم كلما جلستم فى الخمائل تُعاطُون نديما ، أو على شواطىء الأنهار تنشاكوْن الهوى ، أزْجِى وداعاً أبديّا .

لقد جاهدتُ عبثاً فى استرجاع الليالى ، وللمرة الأولى بعد أن كانت إذا ذهَبتْ تعود ، لوَحتْ لِى وهى تولّينى ظَهرها بأنها لن ترجع .

وسرعان ما لاح على أثرها ذلك اليومُ الذى لبثتُ منذ فجر العمر وفؤادى واجفٌ أنتظره ، غيرَ عالِمٍ متى إنِ الموعدُ حان يجىء ، ولا على أية صورةٍ بشعةٍ يحضُر .

واأسفَا ! قُضِىَ الأمر وانتهى زمنُ الترنم بالأغانى ، وحان للمنشد أن يعزف لحنَ الختام .

والآن ، وأنا أسيرٌ بين أيدى الساعات القاسية ، وما من حبيبٍ أو عدوٍّ يستطيع أن يمدَّ لى يده . والآن ، وأنا أذرف الدمعة الأخيرة ، على حين أرمق الآمال وهى تغيب ، وكأنها أحلامُ ليلةٍ سعيدةٍ سطت عليها اللصوص فى الصباح ، أو أحاديثُ عذبةٌ سكبتْها فى مسمعى الأيامُ الحاكية ، فصدَّقتُها وإذا بها إلى الخرافة تنتسب — لآسَى لنفسى تخدعها الليالى ، وتبْذر الآمالَ فيها غُرًّا حسانا ، حتى إذا ما أينعتْ ثمراتُها ودنتْ للقِطاف ، حملتْها معها وذهبتْ إلى مكانٍ قصىٍّ ، كمثْل غريدٍ من سوانح الطير غنّانا فى لحظةٍ من لحَظات النعيم ، أغنيةً شجيةً ثم ودّعنا ورحل .

والآن ، والسفينةُ بى تبتعد ، وأشباحُ الحياة تتراجع أمامى شيئاً فشيئا ، فيطويها البعد فى تلافيف ضبابه — أُقسْم ما ودّعتُ إلا أهلاً

كَلِفتُ بهم ، وبقاعاً عزَّتْ عليّْ .

فيا أيها الخِلاّنُ إذا ما رقدتُ فى غدٍ وهمدتْ عظامى ، فادفنونى إلى جوار دوحةٍ وارفة ، وهيِّئوا لى من الزهر مُضطجَعاً ومِن ورق الشجر .

وليكنْ فى تِلكُمُ الرياض الفسيحِ مثواى ، عساها أن تُفيء على جثمانى الظلال ، كلما عصفتْ بجوانحى من حبكم أشواق ، ما أراها إلا ستظل على رغم البِلى تضطرم .

آه ، لو كنتُ وعظامى تتحرق فى التراب ، أدرك أننى على جمر حبكم أتقلب ! ولكنّ النسيان ويا له من عدُوٍّ للوداد ، سيحْرمنى وا أسفا أن أقتضى بتذكركم ثمنَ عذابى .

فيا من كنتم من قديمٍ مِلْءَ جوارحى ، وعما قليلٍ وبرَغمى سأنساكم ، تعالوا أقبِّلكم

قبلة الوداع ، قبل أن يمر النسيانُ على جفونى بأصابعه ، ويصبح الود الذى كان بيننا أحلاما .

تعالوْا تعالوْا وهاتوا جباهكم العزيزة ، أطبع عليها بشفتىّ الفاترتين ، قُبَلاً كم كنت أصبو إلى أن تكون سخينة ، ثم أمضى إلى حيث جَهِلَ الظاعنُ وتجهلون .

٥٧

وا أسفَا ! لقد حان للجسد المنهوك أن يضطجع ، والأشواقُ الغوالى لم تزل تتأجج .

وكلما اندلع منها بين الضلوع لهيب ، أحسست وفؤادى يتأوّه ، كمَن لمستْه من حَرّها نار .

تُرَى إذا ثويتُ ولم تجد قلباً تأكله ، سوف تأكل مثْل النار نفسَها ؟ أم أنها تستحيل إلى عذابٍ أبدىٍّ يستقرُّ فى ضمير الوجود ،

مثلما تستقرُّ الأرواحُ التى فارقَت أجسادَها ؟

وتُرَى سأظل أعيش فى جحيمها كما كنتُ عشتُ وأتعذب ، أم أن هذا الموت سيكون بلسماً لجِراحى ؟

إنى وإنْ أكنْ قد ذقتُ فيها مصرعى ، لَيشُقُّ علىّ أن يفرِّق بيننا وبَعد طول المحبة موت ، وأود على رغم الشقاء لو لم تنطفىء ، ثم أُبعَث فى لظاها من جديد .

٥٨

عندما يَسكتُ مزمارى وإلى الأبد .
وتذبل أكاليل الزهور فوق جبينى .
وبعد أن تُودِعوا جسدى الترابَ وتسقوه بدمعكم .

وبطاقةٍ من أطيب الزهر تحيُّوا رفاته .

عودوا أدراجكم إلى حيث كنتم تنْعمون .

وتَبعثروا زمَراً على طول الرياض ، والبثوا يُعاطِى النديمُ منكم نديمه ، أقداحَ الهوى أو أقداح السُّلاف ، على نغماتٍ يوقّعها مزمارٌ جديد .

وعندما يشجى قلوبَكم النغم . وبدافع الإعجاب تصْبُون لتحيتة — فاجمعوا من زهر الربى نخبةً مختارة ، وانظموها للشاعر الجديد إكليلَ غار .

وفى ذات أصيلٍ من أصائل الربيع جميل ، أو ليلةٍ من ليالى الصيف مقمرة ، اذهبوا وفداً إليه يُبهج الأعينَ منظرُه ، ثم اعقِدوا الإكليل فوق مَفْرقه ، وبالزهور انثنوا فارشقوه وعُودوا .

وهناك حيث تتساقوْن الهوى ، أنصِتوا ذاهلينَ إلى نغمات مزماره ، وهى تنحدر إليكم من برجه البعيد ، فوق أجنحة النسَمات السارية ،

وطئ أرواح العبق.

وردّدوها ما استهوى أفئدتكم سحرُها الخلاب ، وحلا لكم فى فيئها بثُّ الغرام.

واذكروا غير ناسين عاشقاً وشاعراً قديما ، كان يحيا ويُعاطِى النّدامى مثلكم ، ثم ناداه القضاءُ فتقلّص ظله ، واختفى النغم من مزماره إلى الأبد .

وهكذا الدنيا دولٌ تعْقبها دول . كلُّ يوم نديمٌ يحلُّ ضيفاً على الرياض على حين آخرُ فى الثرَى يودَع . ومليكٌ يُلبَس التاجَ على حين يُخلع آخر .

٥٩

الآن وقد غنيتُ أغنيَتى التى هجرتُ مليًّا عزلتى من أجْلها ، ولبّيت طلباً سائله عزيز ، إنى إذَن لا إلى المحراب عائد .

وإنى وأنا أؤوب من رحلتى القصيرة هذى ، أشهد قد رأيتُ مَواطنَ يا طالما من قَبْلُ رأيتها ، وكانت علىّ عزيزة .

فلقد حلّقتُ برهةً فوق الرياضِ ، وشهدتُ الخمائل التى عاطيتُ فيها حبيبتى الهوى ، أيامَ كنت أرتاد الخمائلَ ، وكانت لى فيها حبيبة .

وحنيناً لعهدى حيّتنى من أفنانها الأطيارُ ، بأغانٍ تذكرتُ أنى قديماً سمعتُها ، وكم انسكبتْ يومئذٍ فى أذنىِ شجية .

وأشهد أنى يمّمتُ شَطْرَ الأنهار ، حيث كنت وحبيبتى نشقُّ بزورقنا المياهَ إلى الضفاف النائية . وأننى تابعتُ إلى المَرْمَى خُطاى ، وعرفتُ هناك بين القوارب قاربى .

ومررتُ بديار المهدِ ، فشاهدتُ وأنا أبكى مَلاعبى ، وطالعتْنى منها صورُ طفولتى . ووقفتُ

بحُجَر الأهل الراحلينَ ، وقلّبتُ نظري بين جدرانها الخاويةِ وتحسّرتُ .

وعرّجتُ على القبور قبورِ موتايَ ، وذرّفتُ دمعاً يا طولَ ما شكوتُ في اعتزالي نُضوبَه .

فيا رحلةً ما كان أكرمَها عليّ ، ويا جولةً في مِهاد الهناء القديم كانت ، جُوزيتِ خيراً عن لوعةٍ أجّجْتِها بالفؤادِ ، وجُوزِي الذين بكِ كانوا أوْعزوا .

ويا أيتها الرياضُ يا موْطن حبي القديم وداعا ! وداعاً يا زهرَها يا أحَبَّ الأزهار ! وداعاً يا أطيارها محلقةً كنتِ أم في وُكُناتِك ! وداعاً وداعاً يا شجرها الظليلَ ويا خمائلها الحانية !

وأنت يا شواطىء الأنهار ! ويا زورقي الذهبيَّ ومجذافيَّ الأبنوسيَّيْن ! ويا مهد طفولتي وديار أهلي الأقدمين ! ويا قبور موتايَ الكرامِ من

شقيقيّ وحبيبي وأبي — وداعاً من غريبٍ نازح قد كان أتى ليحجّ إلى وطنه القديم ويعود .

ويا أيها الرفاق لا تسألوني إذا ما رحلتُ مُقاما ، فإني وإن تكن أرضكم وطني ما أراني اليوم إلا عنها غريب . لقد سألتموني أغنيةً فغنيتها ، وصبوتم لدمعةٍ فذرفتُها ، وإني لآيلٍ إلى المحرابِ عائد .

٦٠

قصيرةً كانت أيها البلبل الناسك في عالَم النور أخيراً جولتُك . إنْ هي إلا لحظةٌ كمثْل طرفة العين ، تلك التي تغيَّبتَ فيها ذات صباحٍ عن صومعتك ، حين دعتْك زهورُك الشيِّقة لعهدك لكيما تغني لها أغنيةً وتعود . ومع ذلك ، فلقد فعلتْ بك واكبِدَا هذه اللحظةُ الأفاعيل .

يا ليت أنّ زهورك للغناء ما دعتْك ، أو

أنها لم تكن عليك عزيزةً فما كنتَ تلبِّ سُؤْلَها ! يا ليتها ، فما كنتَ تخرج من عزلتك المطمئنة محتملاً في سبيل ذلك ما احتملْت ، ثم تؤوب إليها مثقَّل الضمير مكبَّلاً بالأحزان !

وبَعدُ ألم يكن من البِرِّ بحزنك أن لا تعود تغنى ، منتهكاً بالشدو حرْمتَهُ ، مقلِقاً في مثواها عظامَه الهادئة ؟

أوَلم يكن من الرفق بقلبك أن لا تعود ترَى النور الذى قد كدتَ تنساه ، وتُبِلُّ من بُرَحاء بُعده عنك ؟

نعم ، كان كل ذلك ، غير أنك وا أسفَا لم تفعل . وطرتَ للشدو مدفوعاً بنزقك القديم ، غيرَ عابئٍ بما سيجره عليك من ويلاتٍ أنتَ عنها في غِنَى .

وها أنت ذا تعود بعد خُلسةٍ حاولتَها من

بارقة النعيم ، أفتُراك بالله نجوتَ من وخْز الضمير ، أو من لوعة الذِّكريات أنت سلِمْت ؟

أوَلم يؤنبك ضميرك على أنك تركتَ أحزانك ثاويةً فى الظلام ، تكسوها الكآبةُ ويرفرف من حولها الصمت ، ثم رحتَ تجوِّب فى النور وحدك ، باعثاً من أغانيك المرحة هنا وهناك ؟

أوَلم تذكِّرك أغانيك هـذه بالرياض وعهودها ؟ حين كنتَ تطوف بزهورك كلَّ صباح ، فتغنِّيها من صميم أشواقك ما تترنح على أغصانها طرباً له ، حتى إذا ما انتشتْ وانتشيتَ جلستما معاً تُمْضيان لحَظات سرورٍ ما تُنسىَ ؟

والنور ؟ ذلك المعبودُ القديمُ معبودُك ؟ أوَلم يذكِّرك أيضا بهذى العهود ؟ حين كنتَ تصْبح وتُمْسى وأنت تنهل منه ؟ أوَما تذْكر ؟ أيامَ كنت تنام فى وُكْنَتك ، يتنخَّل إليك من

أثناء الغصون شعاعٌ من نور القمر ، يجمِّلُ أحلامَك ويُسعِد كراك ؟ حتى إذا ما طلع الصباحُ وتفتحتْ عيناك على قبلة الشمس ، صفقتَ لها بجناحيك وأنت طَروب ، وطرتَ تمرح فى قلب شعاعها الذهبىّ عَبْرَ الربَى والمروج ، مجتازاً كلَّ وادٍ ، هابطاً كلَّ منتجَع ، شادياً على كل أيكٍ ، لاثماً كل زهرةٍ ، آكلاً كلَّ فاكهةٍ ، شارباً من كل عينِ ماء ؟

والآن ! أوَلم يذكِّرك النورُ والشدو بهذا كلِّه ؟ نعم ، وما كان أغناك عن أن تتذكر ! ولكنها زهورُك ! زهورُك الحبيبةُ أغرتْك ، كما دأبتْ من قِدَمٍ على أن تغريك . وامتثلتَ بدافع شوقٍ قديم لم يزل على رغم العفاء يعاوِد قلبك ، مثلما يعاوِد اللحنَ الضائعَ صداه .

آهِ لو علمتْ زهورك هذى ! لو علمتْ أن

كل أغنيةٍ شدوتَ بها قد اقتطعتْ فلذةً من كبدك ، وأن كل قبَسٍ من ضياءٍ رأيتَه قد راح يكويه كيَّ النار ؟

نعم ، لو علمتْ أن أغانيك تلك التى طربتْ لها ، ما حَملتْ فى نغمها المبحوح إليك إلا أحاديثَ السنينَ الخالية ، ولا جاءك النور فى خيوطه إلا برُؤَى أعوامٍ مضت ! وأنها إذ أغرتك بالشدو سامَحها الله ، وإلى النور دفعتْ بك ، إنما نفَضتْ من الرمس ذكرياتك التى قد كان طواها ، وتركتْها تحزُّ فى قلبك حزَّ الجمر !

آه ، يا ليتها لم تَفعل إذَن ! يا ليتها لم تنبش فؤادك ! إذَن لوفَّرتْ عليك عذابك الجديد ، وتركتْك كما كنت هاجعاً فى سلام .

والآن ، لقد كان ما كانَ ، وها أنت ذا تعود إلى الظلام كما كنت ، حيث تقبع فيه

ما على شيءٍ تلوِى . فحدِّثْنى بالله ماذا تنتوى أن تفعل لتصْرم حبل الوقت ، وبأى جلَدٍ ستقوَى على احتمال الظلام من جديد ، بعد أن لمحتَ النور الذى عاد يفتِّح قلبك ؟

لا شيءَ واحسرتاه ! لا شيء سوى أن تتجلد !

اجلسْ أيها البلبل إذَن قابعاً فى كهفك ، وقد عمَدتَ رأسك المثقَّلَ بيديك ، ثم اصبرْ على مضض وانتظر . انتظرِ اللحظةَ التى تضيء فيها شموعُ آخرِ موكبٍ لك ، حين يدعوك القضاءُ فتُزَفَّ إلى قبرك ، وشيِّعِ الضياءَ عندئذ لآخر مرة ، ثم ودِّعْه وأغمضْ فى التراب .

واهجعْ إذ ذاك أنت وأحزانُك ، وغُطَّا معاً فى النوم إلى الأبد . وعُدْ للظلام والصمت اللذين قديماً أوجداك .

[تم]

شرح

[لا تحتسب فى العدد الأسطر التى بها أرقام القطع]

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٥	١	الفريد	المفرد
٥	١٠	براعم	الزهر قبل التفتح
٥	١٠	تنضو	تنزع
٧	٤	دياجيرك	ظلماتك
٧	١٢	المخضلتين	المبللتين
٩	٣	اترعتهم	ملأتهم
١٠	٨	وجيب	خفق
١٠	١٥	خلص	تفرغ
١١	١	مجامرها	أمكنة الجمر
١١	٢	السرمد	الدائم
١١	٥	مخامر	مُلابس
١٣	١٢	قبّرة	طائر
١٤	٩	ندامى	جمع نديم
١٥	١٣	تتنزى	تضطرب
١٦	٥	تضرج	احمرّ
١٦	٧	جمان	لؤلؤ

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١٦	١٣	الأقاحى	جمع أقحوان وهو نوع من الزهر
١٧	٤	جوى	حرقة الحب
١٧	١١	يهصرون	يضغطون
١٧	١٥	رقوق	جمع رق
١٨	١	قيان	مغنيات
١٨	٥	المندل	خشب للبخور
١٨	٣	البرحاء	شدة الوجد
١٩	١٢	واجفا	مضطربا
٢٠	١٢	مراشفك	شفاهك
٢١	١٠	الوكنة	عش الطائر
٢٣	٢	اللجين	الفضة
٢٣	١٢	تتأرج	تنشر عطرها
٢٤	١	انحسر	انزاح
٢٤	٢	أرغن	نوع من المزامير
٢٤	٣	المفرق	وسط الراس
٢٤	٧	انجابت	انكشفت
٢٤	٨	الأفنان	الأغصان
٢٤	١٢	النثار	ما تساقط
٢٥	٢	السبطة	المنبسطة
٢٥	٧	يرذ	يتساقط قطرات

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٣٥	١٣	ما تنى	ما تنفك
٣٧	٥	دجا	أظلم
٣٩	٣	يتنخل	ينفذ
٣١	٣	يَنفق	يهلك
٣١	١٣	المعقوف	المعوج
٣٤	٩	الأصيل	وقت العصر
٣٥	١٠	تلمّ	تمر خطفا
٣٦	٣	ما تقتم	ما تنفك
٣٦	١٥	المأجج	الملتهب
٣٨	١٢	تنطف	تقطر
٤٠	٦	غمر	لجة
٤١	١١	مجشمى	مخبئى٥
٤٢	٣	أرجوان	احمر
٤٣	٣	تخب	تسير مسرعة
٤٦	٩	تفتر	تنفرج
٥١	٩	ثناياه	أسنانه
٥١	١٠	المنضد	المصفف
٥١	١١	سلافك	خمرك
٥٣	١٣	تضفى	تنشر
٥٤	١	يفيئها	يبسطها

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٥٤	١٠	عفى عليه	ابلاه
٥٧	١٢	الدرارى	الكواكب
٥٨	٢	تبحث	تقطع
٦٠	٤	تخصف	تضع
٦٥	٤	الخفر	الحياء
٦٦	٩	الحبب	الفقاقيع
٦٩	١٣	منتجع	مكان
٧١	١٠	أفانين	أشكال
٧٥	٧	الفلق	الصبح
٨٧	٢	عريش	[تكعيبة]
٨٨	١١	بنت العنب	الخمر
٩٨	١	خمشاتك	[خرابيشك]
٩٩	٢	مختلج	متذبذب
١٠٣	٧	عرف	عطر
١٠٤	١٣	السُّرى	سير الليل
١٠٥	٣	يتخالج	يعترى
١٠٦	٨	لداتها	رفيقاتها
١٠٧	٦	هامة	رأس
١١١	٧	البين	البعد
١١١	١٥	يهيب بك	يدعوك

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١١٢	١٩	المسجاة	الممددة
١١٢	١٥	مسراك	سيرك
١١٣	٣	ظعنوا	بدوا
١١٥	٣	أهدرتها	ضيعتها
١١٥	١٥	قدت	قطعت
١١٦	١٢	أجمة	شجر ملتف
١١٧	٣	الدغل	شجر ملتف
١١٧	١٤	أشلاؤه	أعضاؤه المتناثرة
١١٨	٥	حيكت	نسجت
١٢٥	١٦	دلفت	دخلت
١٢٧	١١	أصيصا	وعاء لأنبات الزهر
١٣٠	٦	مرجل	قِدْر
١٣٢	١٠	تزورّ	تصد
١٣٣	١٥	حُوَّل	متقلب
١٣٥	١	المآقي	مسايل الدموع
١٣٧	١	الفلاة	الصحراء
١٣٧	٢	الحقب	الدهور
١٤٢	١١	غاض	تقلص
١٤٧	١١	مجدودا	محظوظا
١٤٩	٨	الذماء	بقية الروح

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١٥٨	١	الأجداث	القبور
١٥٨	١٠	ربت	زادت
١٥٨	١٢	مخايل	دلائل
١٦١	١	ربقة	قيد
١٦١	٨	نزوات	نزعات الشر
١٦٢	٩	مسوح	ملابس الرهبان
١٦٩	٣	إرذاذ	تقطرُّ
١٧٢	١٢	هملا	مهملة
١٧٧	١٣	تبسق	تطول
١٨٦	١٠	سجوف	أستار
١٩٣	٦	أزجى	أرسل
١٩٤	٩	غرا	حسانا
٢٠٥	١٣	العفاء	الفناء

بيان

للشعر المنثور طريقة خاصة فى القراءة تتلخص فيما يأتى :
[١] وجوب قراءته ترتيلا . [٢] معرفة مفتاح النغم فى المقطوعة وذلك بتلمس اتجاه التأدية الموسيقية للجملة من طبيعة تركيبها . [٣] التزام بعض ما يلتزم فى قراءة المنظوم ، مثال ذلك قراءة كلمتى « إذا بى » كأنهما كلمة واحدة ، اى بدون تمهل بعد إذا . [٤] الدقة فى مراعاة ما تشير به علامات الوقف ، مع ملاحظة عدم الوقوف على الكلمات المشكلة الآخر حتى ولو تلتها فاصلة « فرجيل » أو نقطة « بوان » ، وإنما توضع هذه العلامة أو تلك عندئذ للاشارة إلى وجوب التمهل فى القراءة فقط دون ان يتجاوز الأمر ذلك إلى الوقوف عندها . [٥] نظراً لكثرة اطراد التقديم والتأخير فى هذا النوع من الأسلوب وفقاً لما قد تقتضيه رغبة إشاعة النغم فيه ، قد لا يتيسر فهم الجملة حتى تقرأ بتمامها وباعتبارها وحدة لا تتجزأ ، وذلك مع عدم الاخلال بقواعد الوقف أو الاسترسال عند التلاوة طبقاً لما تبين .

كتب المؤلف

البلبل — مقطعات من الشعر المنثور .

الزنبقة — مقطعات من الشعر المنثور . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .

سمير — مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .

وحيد [طبعة ثانية] — مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها ، واشترت حق تمثيلها الفرقة القومية .

مناجاة — مقطعات من الشعر المنثور . [نفد]

البطالة — بحث اجتماعي . [نفد]

تطلب من ناشرتها
مكتبة النهضة المصرية
١٥ شارع المدابغ بالقاهرة